الحباء من العيبة

غب زيارتي لطيبة

"وضمن مواد هذه الرحلة
كتاب الفقيه الحنفي يوسف الغزي
في شرح حديث من صلى أربعين
صلاة في المسجد النبوي"

تأليف:
محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل
"أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري"
عفا الله عنه



الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الحبـاء من العيبـة غب زيـارتي لطيبـة

[وضمن مواد هذه الرحلة كتاب الفقيه الحنفي يوسف الغزي في شرح حديث من صلى أربعين صلاة في المسجد النبوي]

تأليف

محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل

(أبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري)

ـ عفا الله عنه ـ

فهرس بالمحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له مافي السماوات ومافي الأرض، وله الحمد في الآخرة، وهو الحكيم الخبير. يعلم مايلج في الأرض، وما يخرج منها، ومايننزل من السماء، وما يعرج فيها، وهو الرحيم الغفور.

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً، أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق مايشاء، إن الله على كل شيء قدير.

أحمده على آلائه ونعمائه . . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها.

وأشهد أن لا إلـه إلاّ الله، وحده لاشريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وهو الله لا إلـه إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

وأشهد أن محمدًا عبده، ورسوله البشير النذير، والسراج المنير، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: أيها الناس: فاعلموا أن الحمد جماع المدح والشكر معًا، فالحمد مدح لله لكماله في ذاته وأسمائه وصفاته، فهذا النوع من الحمد هو الاعتراف بجلاله وكماله.

فمن مدح ربه باتصافه بالكرم والرحمة، فذلك جزء من معاني الحمد.

ومن شكر ربه على نعمة الرزق الصادرة عن كرمه ورحمته، فقد أتمَّ معنى الحمد.

فالحمد شكر ومدح.

ولهذا يكون تقديس ربنا وتنزيهه بالتسبيح بحمده، لأن من حمد الله بمدائحه ـ جل جلاله ـ فقد نزهه، ولهذا كان التسبيح بحمد الله من أعظم القربات، ولهذا أيضًا مدح الله المسبحين بحمده فقال ـ تعالى ـ: **﴿إنَّما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خروا سجدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون﴾**. [سورة السجدة، الآية: ١٥].

وقال ـ تعالى ـ: **﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾**. [سورة الزمر، الآية: ٧٥].

وقال ـ تعالى ـ: **﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم﴾**. [سورة غافر، الآية: ٧].

فهذا هو الحمد بمعنى المدح، لأنه مدح لله في ذاته، وصفاته، ومدحٌ لأفعاله بالعلم، والحكمة، والقدرة، والعدل حيث صدرت عن كماله.

ويأتي الحمد بمعنى شكر الله على نعمه، فالمحمود ممدوح في ذاته مشكور على أفعاله وإفضاله.

ولهذا فشكر الله بكلمة الحمد أبلغ لتضمنها المدح والشكر، لأنه شكر لممدوح له الثناء خالصًا.

ويرد في كتاب الله الشكر أمرًا، وتعليمًا في سياق النعم والآلاء.

وأجل النعم، نعمة الإسلام، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ عبده ورسوله محمدًا ـ ﷺ ـ بذلك في سياق الأمر بالعبادة.

قال ـ تعالى ـ آمرًا: ﴿**إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المنذرين. وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وماربك بغافل عما تعملون**﴾. [سورة النمل، الآيات: ٩١ ـ ٩٣].

ومثله الحمد على هداية البيان والإيضاح كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا**﴾. [سورة الكهف، الآية: ١].

وورد الأمر بالحمد على نعمة الهداية بمقابل رؤية الضال.

قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون**﴾. [سورة العنكبوت، الآية: ٦٣].

فيحتمل حمد الله على المعافاة مما هم فيه من الكفر، ويحتمل الحمد على إظهار الحجة عليهم وكون الحق معه: أي مع محمد ـ ﷺ ـ.

ومثلها قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون**﴾. [سورة لقمان، الآية: ٢٥].

والحمد لله على نصر الرسل، وإذلال الكفر وأهله داخل في شكر الله على نعمة الدين.

ولهذا أمر الله رسله بحمده على إثر هذه النعمة.

قال ـ تعالى ـ آمرًا لوطًا ـ عليه السلام ـ: ﴿**فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين. قل**

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون﴾. [سورة النمل، الآيات: ٥٧، ٥٩].

والحمد هاهنا متعلِّق بأفعال سبق الخبر عنها من إهلاك الكفرة، ونصر الرسل، فصار حمدًا لله على هذه النعمة.

وليس الحمد هاهنا معلِّقًا بما سيأتي من التساؤل: ﴿آلله خير أما تشركون﴾، لأن حمد الله على خبر واقع، وليس على أمر جعله الله محلاً للتساؤل.

ولكن لو قال: آلله خير أما تشركون الحمد لله: لكان الحمد لله جوابًا تنزيهياً، فيكون من باب حمد الله لكماله، وذلك هو معنى التنزيه.

ويؤيِّد أن الحمد هاهنا حمد على إهلاك الكفرة، ونصر الرسل، أن الله ذكر في سورة ثانية الكفر، والكفرة، وخذلان الكفرة، ونصر الرسل، ثم ختم بتنزيهه، والسلام على رسله، والحمد له ـ سبحانه ـ، فصحّ أن الحمد للشكر لاللتنزيه في هذا الموضع إذ سبق التنزيه بالتسبيح، فقال سبحانه: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون﴾. وبعد ذلك بسبع آيات تتضمن تحذير الكفّار من سنته في الكفرة. قال: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين﴾. [سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٨٢].

ويؤيِّد ذلك أيضًا أن الآيات من سورة النمل التي نحن بصددها تضمنت التعقيب على التساؤلات التي تلت الحمد فقال ـ تعالى ـ:

﴿بل هم قوم يعدلون﴾.

﴿بل أكثرهم لايعلمون﴾.

فدلَّ على أن الحمد متعلِّق بكلام سابق.

ومن الحمد على نصر الرسل، وإذلال الكافرين قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٤٥].

وفي الآية تعليم للمؤمنين ليحمدوا ربهم عند نزول النعم كهلاك الظلمة المفسدين في الأرض.

ومن التعليم على الحمد في النعم، قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعبده ورسوله نوح ـ عليه، وعلى نبينا محمد، وسائر الأنبياء والرسل أفضل الصلاة والتسليم ـ: ﴿**فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك، فقل الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين**﴾. [سورة المؤمنون، الآية: ٢٨].

وأمر الله عبده ورسوله محمدًا ـ ﷺ ـ بالحمد على نعمة معينة هي فتح مكة، وانتشار الإسلام، فقال ـ تعالى ـ: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فسبِّح بحمد ربك واستغفره إنَّه كان توّابا**﴾. [سورة النصر، الآيات: ١ ـ ٣].

ومن أجلِّ النعم، نعيم الخلد، فيحمد أهل الجنة ربهم على هذه النعمة، كما في قوله ـ تعالى ـ عن أهل الجنة: ﴿**وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين**﴾. [سورة الزمر، الآية: ٧٤].

فهذا حمد شكر.

وكذلك قوله عن أهل الجنة: ﴿**وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٤٣].

وكـذلـك قوله عنهم: ﴿**وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾.
[سورة يونس، الآية: ١٠].

وكذلك قوله عنهم: ﴿**وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنَّا الحزن إن ربنا لغفور شكور**﴾. [سورة فاطر، الآية: ٣٤].

ومن حمد الشكر، ماحكاه الله عن نبيين كريمين ـ عليهما، وعلى محمد، وسائر أنبياء الله، ورسله أفضل الصلاة والسلام ـ: ﴿**ولقد آتينا داوود وسليمان علمًا وقالا الحمد لله الذي فضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين**﴾.
[سورة النمل، الآية: ١٥].

ومثله قول الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء**﴾. [سورة إبراهيم، الآية: ٣٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

* * *

الحمد لله الذي تضمَّن حمده شكره، والثناء عليه، فكان حامد ربه شاكرًا لفضله لأجل نعمه مثنيًا على ربه بمدائحه.

والله في حمده مشكور ولابد، لأنه وَفَّى المطيع حقه، وزاده رحمة وفضلا، وأقام الحجة على العاصي فلم يظلمه، ولهذا يُنادَىٰ الكافرون للبعث فيستجيبون بحمد ربهم الذي جحدوه في الدنيا.

قال ـ سبحانه ـ ردًا على مستبطئي البعث: ﴿**يوم يدعوكم فتستجيبون**

بحمده، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٥٢].

وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده، لاشريك له، له في كل شيء آية تدل على أنَّه واحد، وكل شيء يسبِّح بحمده.

قال ـ تعـالى ـ: **﴿وإن من شيء إلَّا يسبِّـح بحمده ولكنْ لاتفقهون تسبيحهم﴾**. [سورة الإسراء، الآية: ٤٤].

وقد سبَّحت الجبال، وثبت في الصحيح أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله، ﷺ، وسبَّح الحصىٰ في كفّ رسول الله ـ ﷺ ـ.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي تعبَّده ربه بالتسبيح بحمده، وجعل ذلك عونًا له على أذىٰ الكافرين، فقال ـ تعالى ـ في سياق الخبر عن كفر الكافرين، وجعلهم مع الله إلـهًا آخر وَضِيقَ صدرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ بذلك: **﴿إنَّا كفيناكَ المستهزئين. الذين يجعلونَ مع الله إلـهًا آخر فسوف يعلمون. ولقد نعلم أنَّك يضيق صدرك بما يقولون. فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾**. [سورة الحجر، الآيات: ٩٥ ـ ٩٨].

ومثله قوله ـ تعالى ـ: **﴿واصبر لحكم ربِّك فإنك بأعيننا وسبِّح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النُجوم﴾**. [سورة الطور، الآيات: ٤٨ ـ ٤٩].

قال المفسِّرون: يسبِّح بحمد ربه عند قيامه من كل مجلس يجلسه، وقيل: يسبِّح حين يقوم إلى الصلاة، وقد ردَّ هذا المحققون.

وقيل: صلِّ لله حين تقوم من منامك.

والنجوم تدبِر آخر الليل.

ومثل ذلك قوله ـ تعالى ـ حاثًا عبده ورسوله محمدًا ـ ﷺ ـ على تحمل أذى الكفَّار: ﴿**فاصبر إن وعدَ الله حقّ واستغفر لذنبك وسبِّح بحمد ربك بالعشي والإبكار**﴾. [سورة غافر، الآية: ٥٥].

وأمره بالتسبيح بحمده في سياق أمره بجهاد الكفَّار، فقال ـ تعالى ـ: ﴿**وتوكَّل على الحيِّ الذي لايموت وسبِّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً**﴾. [سورة الفرقان، الآية: ٥٨].

ولهذا شرع له ربه الحمد والتسبيح من آناء الليل وأطراف النهار، فقال ـ تعالى ـ عقب الخبر عن كفر الكفَّار وافترائهم: ﴿**فاصبر على مايقولون وسبِّح بحمد ربِّك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبِّح وأطراف النهار لعلَّك ترضىٰ**﴾. [سورة طه، الآية: ١٣٠].

ومثله قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فاصبِر على مايقولون وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود**﴾. [سورة ق، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠].

والمراد بالسجود الصلوات.

اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه.

والسلام على ملائكة الرحمٰن الكرام المسبِّحين بقدسه وحمده، كما أخبر

عنهم ربهم، إذْ يقول: ﴿**قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبِّح بحمدك ونقدِّس لك**﴾. [سورة البقرة، الآية: ٣٠].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**ويسبِّح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته**﴾. [سورة الرعد، الآية: ١٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**تكادُ السموات يتفطَّرنَ من فوقهنَّ والملائكة يسبِّحون بحمد ربهم**﴾. [سورة الشورى، الآية: ٥].

فإن كان فعلُ المقاربةِ عن عظمةِ الله، فالحمد حمد تقديس.

وإن كان تبسيحُ الملائكةِ من جرَّاء جراءة المشركين على الكفر، فالتسبيح والحمد للتعجب، وقد يرد الحمد والتسبيح في موضع العجب، ويرجِّح المعنى الثاني قوله ـ تعالى ـ: ﴿**تكاد السماوات يتفطرَّن منه وتنشق الأرض وتخرُّ الجبال هدًا، أن دعوا للرحمـن ولدا**﴾. [سورة مريم، الآيتان: ٩٠، ٩١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وترى الملائكة حافين من حولِ العرش يسبِّحون بحمدِ ربهم وقضيَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾. [سورة الزمر، الآية: ٧٥].

فقد يكون قائل الحمد لله أهل الجنة، حمدوا ربهم حمد شكر ومدح إذْ فصِل بينهم وبين أهل النار بالحقّ، فعامل الكفَّار بعدله، فمدحوه لكمال عدلـه، وَبَوَّأَ المؤمنين الجنة، فشكره المؤمنون لسابغ فضله، وإحسانه، ورحمته.

وقـد يكون الحمد من الملائكة: حمدوا ربهم حمد تقديس لحكمه بين

الخلائق بالعدل والحق.

اللهمَّ أعِزَّ الإسلام والمسلمين، وأذِلَّ أعداء الدين من الكفرة، والمشركين، والملحدين، والمبتدعين، والباغين، واجعل هذا البلد آمنًا رخاء سخاء، وسائر بلاد المسلمين.

اللهمَّ آمنَّا في دورنا، وأصلح ولاة أمورنا، واجعل اللهم ولايتنا فيمن خافك واتقاك، واتَّبعَ رضاك برحمتك ياأرحم الراحمين.

اللهمَّ أبرم لهذه الأمَّة أمر رشد يعزٍّ فيه أهل طاعتك، ويذلّ فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهىٰ فيه عن المنكر.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار.

واذكروا الله العظيم الجليل يذكركم، واشكروه على نعَمه يزدكم، ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون.

قال أبو عبدالرحمن: هذه خطبة من نسيجي تصلح لخطبة الجمعة الأولى والثانية، وهي أطول خطبة مرَّت في حياتي العلمية لأصغر كتيِّب.

إلاَّ أنها خطبة في الحمد، وأنا أحمد الله، وأضاعف الحمد على لحظة أعيشها بطيبة المباركة، فما بالك بأشهر أعادت لي شبابي وحيويتي؟!.

وهي مفعمة بالصلاة على رسول الله ـ ﷺ ـ حيث يوجد قبره (بأبي هو وأمي) بطيبة الطيبة.

وليس بكثير أن أحيي طيبة، وأهل طيبة بخطبة جمعة!!.

* * *

أما بعد:

فقد حملت حقائبي، وكتبي، وأوراقي تلالاً ورزمًا إلى دار المصطفى

رسول الله ـ ﷺ ـ جميع شهر شوَّال وذي القعدة عام ١٤١١هـ، لأتخلَّص من كوني زائرًا، أو مزورًا، فأُنجِز موسوعات تاريخية في دور المراجعة والتصحيح.

وقد بورك لي في أول الوقت فقسمته بين المسجد النبوي الشريف ومنزلي في العنابية شرقي المسجد النبوي بفندق قصر دار السلام.

وفي الروضة الشريفة بالمسجد النبوي أنجزت تصحيح كتيِّبي: «شيء من العبث الصوفي»، وسألت الله فيه حسن القول، والعمل، والاعتقاد.

وأنجزت مالا بأس به من أجزاء الكتب الأخرى.

ثم اتسع الخرق على الراقع آخر الوقت، فكنت خلاله زائرًا ومزورًا.

وكانت مفكرتي تلازمني أسجِّل فيها مالذ، وألتقط فيها ماند.

وكنت خلال ذهابي وإيابي أرىٰ ضفاف العقيق، وهو ندي شذي بطيوب الفن والأدب.

والغزل الحجازي له دلُّه بشهادة كُتَّاب المحاضرات والمختارات، ولكن المدنيين بينهم كانوا أحسَّ بفتن الجمال في الفن والطبيعة معًا.

بل كنت أجد ريح المقامات ربما في مصادفات بعض التلاوات.

ولقد عاودني منسيُّ الهوى، وكان صوت البلبل المغرِّد السيد حسين هاشم إدريس هاشم ـ رحمه الله ـ وابنيه طريف وطلال محض المصادفة لزمن توثُّبي الفني.

وعاد يتألَّق في أذني أصداء ماكدت أنساه من أنغام المقامات الرئيسة السبعة التي يجمعها كلمتا: «بحمر دسج».

وهي أناشيد منغمة بغير آلات وتر أو موسيقى.

وحظيت من طريف ـ حفظه الله ـ بصورة سفر خطي نفيس من تركة والده، يتضمن قصائد بعضها يثب بالقلوب، وبعضها عظيم الخطر تاريخيًا، لأن فيه قصائد لمعاصرين نسوا ذلك الشعر، ولايكاد يخطر ببالهم أنهم قالوه كزجليات للشاعر الصديق محمد هاشم رشيد.

حتى الأستاذ عبدالفتّاح أبو مدين ماظننت أنه شاعر، ولكنني وجدت له في كراسة السيد حسين هاشم ـ رحمه الله ـ أنشودة مليحة.

سمعت من تغريد حسين ابتداء بالسيكا وانتهاء بالرصد:

دع طرق الغي
فالدنيا فيّ
الكل يفنى
والباقي حيّ

وأحيانًا يجاوبه المنشدون بنغمة من الخيشوم، بكسر حاء «حي» والصواب فتح الحاء، ولكنه دلال مدني يقتضيه الفن ليأخذ بتلابيب القلوب.

وفي تنغيم المنشد:

والله مافي هذا الوجود
إلا مشيرًا للمعبود

قال أبو عبدالرحمن: هذا التفات لقول الشاعر:

له في كل شيء آية
تدل على أنه واحد

وفي تنغيم المنشد:

ياويـح قلـبـي ماسـتـتـاب

ممـا جنـت يـد الـشـبـاب

يـا خجـلـتي يـوم الحـسـاب

من ناقـد يحصـي علـي

صـل وسـلـم ياسـلام

على الـنـبـي ماحـي الـظلام

والآل والـصـحـب الـكـرام

ماحـن مشـتـاق لمي

قال أبو عبد الرحمن: وربما انشقت الأنشودة الدينية عن ذكريات فنيَّة:

خذ مثال ذلك:

ياطيـرة طيـري ياحمـامـة

فهذا هتاف فني معروف، ولكنه تحوَّل إلى أنشودة دينية هكذا:

وانـزلـي بمـكـة وتهـامـة

هـاتـي كامـن حـبـي علامـة

مـن عنـد رسـول الـلـه

أنـا زايـد شوقـي لأهـل الـلـه

قال أبو عبدالرحمن: ومثل ذلك:

على بلـد المـحـبـوب ودِّيـني

زاد وجـدي والـبـعـد كاويـني

فهذا مطلع فني، ولكنه مدخل لهذه الأنشودة:

يانبـــيًا فقـــت الأمـــلاك

قال أبو عبدالرحمن: وهذا ضرب من النشيد الغنائي، مجرَّد عن الآلة إذا تجرَّد من الارتباط بمناسبة معينة على أنه عبادة، فإنني أفضِّله على الغناء البـدوي من هجيني وسـامـر وعـرضة، سواء صحب ذلك الطبل أو لم يصحبه، لأن تجرده من الآلة أبعد من المحذور الشرعي، ولأن معانيه في مدح المصطفى - ﷺ - وطيبة أشرف من غناء في التشبب، ووصف النوق، وشبه ذلك، ولأن لغته وأداءه أرقى.

فإن تعدت الكلمة حدود المدح إلى الغلو فإن الحس الديني يكع ويرتاع.

إن من نغم السيكا - وبدون آلة - هذا المقطع:

مـا مـــد لخيـــر الخلــق يـــدا

أحـــد إلا وبـــه سعـــدا

إلى:

إنـــي بالــعـــسر وبــالــيـســر

بحـماه ألــوذ مدى الــعـمــر

.. إلخ.. إلخ.

فهذا يعكِّر صفو العقيدة، ومثله القسم بغير الله كما في هذا المقطع من نغم بيات:

قـــمًـا بالـــنـجـم حيــن هـــوى

ماالمـعــافـى والـــسـقـيـم سـوا

وأحيانًا يستفتح النشيد بمأثور أدبي فني له صدى ليستجمع القلوب، كهذا المطلع:

أبـدًا تحـن إليكـم الأرواح

فهذا مطلع قصيدة السهروردي ثم قال المنشد:

يـاسـادة لولاهـم مـالاح في
أفـق المـكـارم للفـلاح صبـاح
من ذا يفـاخـركـم وأنـتـم عصبـة
قـرشـيـة وشـذاكـم فـواح

ويكثر في نشيد «بحمر دسج» ذكر طه على أنه اسم المصطفى - ﷺ -، وبذلك درج العرف في العصور المتأخرة، فكان الناس يسمـون بطه.

وكان هذا موضع نقاش بمزرعة أخي الدكتور نايف الدعيس، وقد أكَّد لي الدكتور محمد عيد الخطراوي أن كتب السيرة قاطبة لاتذكر طه اسمًا لرسول الله - ﷺ -.

قال أبو عبدالرحمن: وراجعت تفسير القرطبي عن طـه، فوجدته يذكر أقوالاً عن معناها ولا يرجح.

ويذكر بين الأقـوال بصيغة التعريض وبدون تخريج أنها اسم لرسول الله - ﷺ -.

قال: «وقيل هو اسم للنبي - ﷺ - سمَّاه الله - تعالى - به كما سمَّاه محمدًا.

وروي عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**لي عند ربي عشرة أسماء**.

فذكر أن فيها طه ويس». اهـ[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/١١١ - ١١٣.

قال أبو عبدالرحمن: وأرجح ماعندي في هذه العجالة أن طه نداء تأنيس بمعنى: يارجل، أو ياحبيبي، كما هو في لغة عكل الربابية، وعك، وطيء.

ونسبت هذه اللهجة أيضًا إلى السريانية، والنبطية.

قال يزيد بن المهلهل فيما أنشده قطرب:

إن السفاهة طه من شمائلكم
لا بارك الله في القوم الملاعين

المعنى: إن السفاهة يارجل.

وأنشد الطبري:

دعوت بطه في القتال فلم يجب
فخفت عليه أن يكون موائلاً

قال أبو عبدالرحمن: ولنا بطيبة الليالي المضيئة، والمكاثرات بالمذاكرات أصطاد منها ماأتذكَّره على منهج الأسلاف عندما يقيدون في أسفارهم طُرفَ وفوائد المذاكرة.

ومن محاسن سمرنا في طيبة الغرَّاء، أن مجالسنا خالصة: إما للأدب والاسترواح البريء كبعض الجلسات التي يتصدرها الدكاترة محمد عيد بن فرج الخطراوي، وعبدالله العسيلان، ومحمد هاشم رشيد، «وأدخل أبو طه في الدكترة على أسلوب الأسودين التمر والماء على أنه هو وشعره موضوع للدكتوراه».

وإمَّا علمية كالمجالس التي يتصدرها الدكتور عبدالعزيز بن الشيخ عبدالفتاح قارىء، والدكتور نايف الدعيس، والشيخ حمَّاد الأنصاري.

وفي إحدى الجلسات كان الحديث عن الأراجيز، وكان القارىء والعسيلان يكمل أحدهما الآخر في استذكار أرجوزة صديقهما وزميلهما محمد الحداد، وكانت أرجوزةً ألفيةً مطلعها: قال محمد هو الحدَّاد.

وهي من الشعر التعليمي إلا أن موضوعها ظريف طريف، لأنها في نظم اللهجات العاميَّة، ولا أعلم أحدًا سبق إلى هذا.

قال أبو عبدالرحمن: وكنت في أول عهدي بالوظيفة حاولت نظم نظام المناقصات بأرجوزة علمية، وقد عجزت وضاعت محاولتي، ولو فتح على فيها لكان موضوعها طريفًا ظريفًا أيضًا.

ومن أرجوزته:

وأهل صنعا يقلبون الدال طا
كقولهم: هل تطرطون العبطا؟

المعنى: هل تطردون العبدا؟:

ويقول عن عامية الشام والسودان:

واستبدلوا اسم رجل بزلمة
كما نقول عندنا للغنمة
واستبدلوا اسم رجل بالزول
من بعد عشر وتمام الحول

وقال عن اللهجة الحجازية:

وفي أب فقل له يابويه
كذاك في الما قل له جب مويه

وفي ثلاثـة فقـل تلاتـة
عنـد المـثـقـف وبـني فلاتـه

قال أبو عبدالرحمن: كتبت في صلف الشباب أن فلاجة بالفاء المنقوطة بواحدة من فوق لغة الآخذين بأذناب البقر من الكلاليف، وأن تلاجة بالتاء ذات النقطتين من فوق لغة المترفين ذوي الرقة والأنس، وأن الثلاجة بثلاث من فوق لغة أهل سواء السبيل.

وجاء في ألفية الحداد:

تدخـل لم على المضي بغـير شك
فاقـبـل بها وإلا نعـامـة ترفـسـك

قال أبو عبدالرحمن: هذا المعنى سبق إليه العجاجي عندما دس في الألفية:

وجـوزوا دخـول لم على المضي
كلم سعـى ولم دعـا ولم رضي

وانطلى ذلك على المدرس والطلبة.

وقبله الشيخ محمد بن إبراهيم البواردي ـ رحمه الله تعالى ـ أدخل في الرحبية:

وإن تكـن من حلقـهـا تكـح
فأولى مايكـون لهـا الـذبـح

ورويت عن الشيخ حمّاد الأنصاري من محفوظه هذين البيتين الطريفين:

وعـالم يسـكـن بيتًـا بالـكـرى

وجـاهـل يمـلك أرضًـا وقـرى

لما قرأت قولـه سبـحـانـه

نحـن ﴿قـسـمـنـا بينهـم﴾ زال المـرا

وجرى البحث في القدوع عند أهل نجد فأسمعني الشيخ حمّاد هذا البيت ـ وأظنه عزاه إلى المحكم لابن سيده ـ وهو مما يتمثل به أهل شنقيط:

والـبـاشـا «بـارجـات» مايقـدم

للضـيف من نزولـه إذ يكـرم

قال أبوعبدالرحمن: وأنا أستبعد ثبوته في المحكم.

و «البارجات» بمعنى القدوع.

قال أبو عبدالرحمن: القدوع لايكون إلا تمرا.

وهذا الذي ذكره الشيخ حمّاد يسمّى عندنا في نجد فوالة حيث يقدم للضيف عيِّنة مما نجز من قراه: كقرص، أو مرقة، والقدوع أعم من جهة لأنه يقدم في كل وقت، وأخص لأنه اسم لما يقدم من التمر فحسب.

وللدكتـور عبـدالعـزيز القـارىء أرجـوزة في رحلة البحث عن المخـطوطـات، بمصر، وتـونس، والمغـرب، وجلبها لمركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالجامعة الإسلامية بطيبة ابتداء من ١٤٠٨/١٢/١٢هـ إلى ١٤٠٩/١/٦هـ، وكانت الرحلة مكونة منه، ومن الدكتور عبدالله بن عبدالرحيم العسيلان، والدكتور صالح بن فهد الفهد.

وصف في هذه الرحلة تخوفًا في الطائرة، فقال:

واتّجه الطابور نحو الباب
ولاتسل عن فرحة الركّاب
بعد وقوف دام نصف ساعة
كأنهم ينتظرون الساعة
تراجع الجميع في كآبة
وكلنا يندب ماأصابه
ودهشة قد علت الوجوها
ويطلبون سبباً وجيها
فأنجدونا في مطار (جدة)
والناس في توتر وحدة
وأخبرونا أن فيها (داهية)
فهل ترى لجمعنا من باقية
بذا البلاء هتف المجهول
فطارت القلوب والعقول
وقد يكون خبراً مكذوبًا
ملفقًا مدبرًا محسوبا
لكن تولى أمرها المسئول
بدقة التفتيش ياعجول
حرصًا على سلامة الركّاب
وذاك منهم مقتضى الصواب

في مثل ذا يعمل بالموضوع
بخبر المجهول والمقطوع
ووقف الركّاب في ذهول
وبعضهم فكّر في القفول
وبعضهم بالرعب كاد يصرع
من شدة الفجعة كاد يرجع
قال ارجعوا ياقوم نحو طيبة
لاتقذفوا أنفسكم في خيبة
لكنني أيدت رأي (صالح)
على المضي في سبيل الصالح
حتى جلسنا في كراسي الطائرة
والناس عطشى والقلوب حائرة
وأقلعت باسم الحفيظ تجري
حتى استوت بين السما والبحر
وكلما قرقع فيها سقف
صاح ضعيف القلب جاء الحتف
والحمد لله على السلامة
ورضيت أنفسنا اللوامة

وتنحو الأرجوزة إلى تسجيل الحبور بكل لحظة يقتنون فيها مخطوطًا على هذا النحو:

مما أخـــذنـــا منـــه من نفيس

(مكمـل الأكـمال للسنوسي)

وقـــطعـــة قليلة الـــعـيـــوب

قديمـة الخط من (الترغيب)

ومن شروح (مـورد الـظمآن)

شرح بـــ (فتـح ربنـا المنـان)

وفي فنـون الـفـقـه (إدرار الشروق)

تحشية عجيبة على (الفروق)

وفي الـقـــراءات شروح عدة

تبرق من نفـاســة وجـــدة

وكلها تخدم (حرز) الشاطبي

في زينـــة تسر عين الخـاطب

كنسخـة (اللآلي الفـريدة)

شرح يضـــم جملة مفـــيدة

أعــظم منـــه شرح ذاك (الجـعــبري)

فيالـــه من عالم محرر

قد يسَّر الله لنـا بضـع نسـخٍ

منـــه تولى حسنهـا لمن نسـخ

أعــجـب من هذا كتــاب (الحـنـبـلي)

يشرح (حرز) الشاطبي الأنبل

و (لابن حارث) كتاب جامع

في أدب الفتيا صغير نافع

ونسخة كاملة من (الطراز)

مضمونه شرح على (الخراز)

وفي النكاح (مقنع المحتاج)

في أدب الزواج والأزواج

وغير ذا وذاك من نفيس

فهيء الصداق للعروس

ومن أبازير الدكتور الخطراوي حوار السقاء مع ابن الحارة.

يقول السقاء:

رعاك الله ياسقًا

مياه الأنس بالدقا

كما أسقيتني ماء

ولم تأخذ له حقا

فقال السقاء:

سقاك الله ياسيدي

مياه الأنس من ايدي

فخل البهللا عنكا

وحط القرش في ايدي

وعند أهل الحجاز القصرية ـ بفتح القاف وسكون الصاد ـ يستعمله العجزة من المرضى والمسنين لما يخرج من السبيلين.

ومع قباحة مظروفها فإنها تَماتع وتَمانح ولاتكاد تنكسر.

وبعكسها أوان يوضع فيها الورد وأغصان الرياحين فإنها تنكسر لأدنى ملامسة.

فإذا هلك سَرِيٌّ في ريعان شبابه، أو عُمِّر من لاخير فيه فإن المثل المدني يقول: ﴿طيان (...) ما تنكسر﴾.

رويت هذا المثل عن الدكتور الخطراوي.

* * *

قال أبو عبدالرحمن: وحدَّثني الأستاذ إبراهيم غلام من وجهاء المدينة المنورة وفضلائها ـ والقصة متواترة ـ أن شاعرًا سودانيًا بصحبة خالد خليفة رحمه الله أطار عنه الكرى وهو يردد شعرًا أعده لمدح الملك سعود رحمه الله ويقطع تفعيلاته، فلمّا أخذوا مضاجعهم وغشّاهم النعاس استل إبراهيم غلام القصيدة فنام ماتيَّسر له ثم سبقهما إلى الديوان الملكي.

أما السوداني فلمّا أفاق ولم يجد أوراقه دوَّن على عجل مابقي في ذاكرته.

فلمّا وصل خالد وضيفه السوداني إلى الديوان وأخذا مقاعدهما وجدا إبراهيم غلام يلقي القصيدة على طويل العمر وكأنها من بنات أفكاره، ومن ضمنها:

أرادتْ ولما أن أردتُ ترددت
وماعلمت أني قصدت سعودا
وماعلمت أني بآمال أمة
قصدت أبا الخيرين أطوي البيدا

درستُ رجال الشرق والشرق واسع
فكنت أبا المنصور أصلب عودا
وأكثرهم بالمسلمين ترفقا
وأعظمهم يوم الفخار جدودا

وكان في القصيدة بيتان يدلان على صاحبهما الحقيقي، ولكن الأستاذ إبراهيم غلام طمرهما، وأحد البيتين قوله:

ذريني فسوداني غدا لي محنة
وأصبح عيش الحر فيه نكيدا

وأظنه ذكر من شاهدي العيان معالي الشيخ عبدالله بن عدوان أدام الله عليه نعمة العافية وسعادة الدارين [قال أبو عبدالرحمن. ثم توفي آخر هذا العام رحمه الله].

وقوبلت القصيدة بالاستحسان والإكرام للشاعر، والشاعر السوداني الحقيقي يرى، ويسمع، ويتقطع حسرة، ولا يستطيع أن ينبس ببنت شفة.

ولما انفضّ المجلس لحق خالدُ خليفة وضيفُه إبراهيمَ غلام ليعتبا عليه فقابلهما بكل برودة. يقول: خير إن شاء الله.. عسى أن لا أكون لحنتُ!!

قال أبو عبدالرحمن: الغصب، والإغارة باب واسع في نقد الشعر والشعراء.

وكان هذا المقلب الممتع الشجاع من ضمن مقالب عديدة يتلوها الأستاذ إبراهيم غلام ويستشهد على صحتها بالسيد حبيب لأنه كان شاهد عيان.

ولاشك عندي أن إبراهيم غلام استباح الشاعر السوداني، وأعطاه

الجائزة التي دفعت لقصيدته، وبينً لطويل العمر حقيقة الأمر، ولكن إبراهيم لم يذكر ذلك في حديثه ليبقى الموضوع مثيراً.

وكانت ندوة في غاية المتعة بمنزل الوالد الكريم السيد حبيب يتطارح فيها درر العلم، وروائع الذكريات الشيخ سعيد الجندول، وإبراهيم غلام، والدكتور الخطراوي، والدكتور نايف الدعيس، والأستاذ محمد هاشم رشيد، والشيخ ناصر الحطامي.

وكان معظم وقت الندوة في مكتبة الشيخ السيد حبيب، ومارأيت قط مثلها من مكتبات الأفراد كما وكيفًا.

وفيها مالايحصى من نوادر المخطوطات المصورة ونوادر المطبوعات التي هي في حكم النسخ الخطية.

ومع أن السيد أمد القوم عمرًا، وأحفلهم ذكريات، فقد كان أشهرهم إصغاء وأقلهم اعتراضًا، وكأنه تمثّل قول الشاعر:

لم تعط مع أذنيك نطقا واحدا

إلا لتسمع ضعف ماتتكلمْ

وكان الشيخ السيد حبيب لملازمته مقعده في المسجد النبوي، ممن حضروا دروس شيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في التفسير، فلم يغادر منه دقيقة واحدة، وسجل جميع دروس الشيخ، وكان تسجيله متميزًا بالصفاء والوضوح.

قال أبو عبدالرحمن: وكنت في استراحة الدكتور عايض الردادي بطيبة الغراء، ووعدته على رؤوس الأشهاد أن أعود لبرنامجي تفسير التفاسير بشكل أجود يركِّز على المخطوطات المصورة.

ولما علم السيد حبيب بذلك فتح لي هو والأستاذ أسعد شيرة وسعيد الدروني - جزاهم الله عنيِّ خيراً - خزانات مكتبة عارف حكمت، والمحمودية.

وهكـذا فعل معالي الدكتور عبدالله بن صالح العبيد رئيس الجامعة الإسلامية، والأستاذ عبدالرحمن بن الشيخ عبدالعزيز الصالح.

وهكذا فعل الشيخ سليمان بن صالح العبيد بالنسبة لمكتبة المسجد النبوي.

فأتيح لي مالم أحلم به مدى العمر من تصوير نوادر التفسير لاسيما الحواشي على الكشاف والبيضاوي.

ولهذا فالرحلة إلى طيبة المباركة لاتُقَدَّر بثمن، ولاتحصىٰ بركاتها وثمارها، والحمد لله كثيراً.

* * *

وبمناسبة الإغارة من قبل الأستاذ إبراهيم غلام أذكر ماأملاه عليَّ بعاصمة الجبل حائل أبو نواف مشعل الناصر السبهان من أبيات فكاهية لحمد أبو فواز من أهل العطَّار، يعارض فيها قصيدة راكان بن حثلين الفائية الميمية، إلا أنه جعل قصيدته فائية دالية فقال:

قال الـذي في بدع الأمثال عرافْ
يمشي بطاروقه ولاهوب غادي

رد على راكان زيزوم الأسلاف
مقدم بني يام نهار الطراد

عاداتنا عند السماطات تنشاف

لأثار دخان المرق بالبوادي

اللي مكذبني يقرب ويشتاف

فعل يبين لاحضر كل زاد

نضرب بخمس والمثاني والأطراف

وأبرد لهيب الكبد وأشفى فؤادي

هذا الشغل ماهوب شغل ابن حلاف

خلوا كراعة شائر بالحماد

قال أبو عبدالرحمن: ابن حلاف فارس من عنزة، ولأبي نواس الحسن بن هانىء شعر كثير في معنى هذا البيت عندما مجَّد سويعات اللهو وفضَّلها على ساعات الطراد المروعة.

قيل إن الشاعر أنشد هذه الأبيات لمتعب الحمود السبهان بحضور الشاعر نافع بن فضليَّة فانتحل الأخير القصيدة وأنشدها الملك عبدالعزيز رحمهم الله مدعيًا أنها له حتى كشف متعب الأمر بعد علمه بمسألة الانتحال.

قال أبو عبدالرحمن: شبيه بالبيت الأخير من شعر أبو فواز قول أبي نواس في تفضيل لهوه على الجهاد، فإنه من فرط الشعوبية، أو الغرق في اللذة، أو الثأر للزندقة فضَّل الفسق على الجهاد كما في قوله:

إذا مابدت أزرار جيب قميصه

تطلع منها صورة القمر البدر

فأحسنَ من ركض إلى حومة الوغى
وأحسن عندي من خروج إلى النحر
فلا خير في قوم تدور عليهم
كؤوس المنايا بالمثقفة السمر
تحياتهم في كل يوم وليلة
ظبا المشرفيات المزيرة للقبر

ومثله قصيدة «أحسن من منزل بذي قار»، ففي خلال تعداد الملذات النؤاسية قال:

وشم ريحانة ونرجسة
أحسن من أينق بأكوار

و:

ألذ من مهمه أكد به
ومن سراب أجوب غرار

و:

أحسن عندي من أم ناجية
وأم عمرو وأم عمَّار
أحسن من سير على ناقة
سير على اللذة مقصور

وعلى العموم فعنده أن: «صفة الطلول بلاغة الفدم».

ومن هاهنا قال:

أحب إليَّ من وخد المطايا
بمومات يتيه بها الظليم

ومن نعت الديار ووصف ربع
تلوح به على القدم الرسوم

رياض بالشقائق مونقات
تكنف نبتها نور عميم

كأن بها الأقاحي حين تضحي
عليها الشمس طالعة نجوم

وإذا كانت ظبا المشرفيات تروع الحكمي - إذ كانت تحيات المجاهدين -: فإن للتحية عنده لغة ثانية، وهي دلالة من دلالات العيون:

بدء التحية بينهم
نظر النديم إلى النديم

وتظل التحية على شبابها حتى ينعى الليل بالناقوس رهبان!!.

وساعتها يكون كل واحد رأى الديك حمارًا:

خلنا الظليم بعيراً عند نهضتنا
والتل منبطحًا في قد ثهلان

قال أبو عبدالرحمن: يحسبون القد عامية، وإنما هي فصيحة أصلها قده على قده فتولد من ذلك معنى القدر.

ومثله:

ويرى الجمعة كالسبت (م) وكالليل النهارا

وهي ليلات تغرقها التفديات بالعم والخال وتمتهن فيها الأنساب والأرحام:

بتفدية تذال النفس فيها وتمتهن الخؤولة والعموم

ولكم عصروا أعينهم فحلبوا من أجل الود ماء المآقي، ولكم قهقهت المُلَح جمع ملحة.

قال أبو عبدالرحمن: والفرق بينهما أن شهوة أبي فواز سماطية، وشهوة أبي نواس باطيَّة يصيد الشمس فيها.

وفي ترددي مابين الحرم النبوي الشريف ومنزلي في الفندق كان جبل أحد المبارك يلوح عن يميني ذاهبًا إلى المسجد، وعن يساري آيبًا، وكاد الخلاف ينشب بين أحد المشايخ القادمين من الرياض وبين ابن المدينة المنورة أخي أكرم: هل أحد شمال أو شرق؟!

فحسم الخلاف شعر أبي طه محمد هاشم رشيد من قصيدته جبل أحد من ديوان في ظلال السماء:

تضم ياأحد بلاد النبي
من شرقها تمتد للمغرب
على شمال البلد الطيب

قال أبو عبدالرحمن: كل ماذكرت طيبة أعبر عنها بالمدينة المنورة حسب

العرف السائد، وكان عدد من الشباب يتحرجون من إطلاق الوصف بالمنورة، لأنه لم يرد به نص شرعي؟؟!!

كان جمهورهم يستفهم فحسب، وقلة منهم كانوا يفتون ولا يستفتون ويزعمون أن هذا الإطلاق بدعة.

قال أبو عبدالرحمن: المدينة بلد رسول الله - ﷺ - وقد ورد اسم المدينة في كتاب الله كما في سورة التوبة، وسورة المنافقين.

والنور الذي وصفت به وصف كمال ومدح، وليس من شيء الأوصاف، فالأصل الجواز، وعلى من منع منه الدليل على المنع.

وقد غيَّر رسول الله - ﷺ - اسمها يثرب إلى اسم جديد أو قديم استحياءه وهو المدينة، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب، وهي المدينة.

وقد نقل جواد علي في المفصل عن اصطفيان البيزنطي أن اسمها قديمًا المدينة تعريب مدينتا.

وعلى أي حال فالأصل جواز وصف المدينة بالمنورة استحبابًا، لأن هذا الوصف عندي مستحب لا جائز فحسب لو لم يوجد نص شرعي أو تاريخي بوصفها، لأنها مهاجر رسول الله - ﷺ - وبلده جمهرة بعثته، وبها وفاته بأبي هو وأمي، ومن مهاجره أشرق نور الوحي على الآفاق.

قال أبو عبدالرحمن: ولما صحَّ أن الأصل استحباب وصف طيبة بالنور فلا أرى ضرورة للتعمق في البحث عن نص شرعي يستنبط منه الوصف بالنور، على أن الدكتور عبدالعزيز قاري، ذكر حديثًا عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - في مسند أحمد أنه قال: «**أضاءت المدينة حين قدمها**

رسول الله - ﷺ - وأظلمت حين توفي رسول الله - ﷺ -».

ووصف طيبة بالمدينة يبدو أنه متأخِّر الاستعمال، لأن الشيخ أحمد بن عبدالحميد العباسي لم يذكر ذلك في أسماء طيبة بكتابه عمدة الأخبار وهو من أعيان القرن العاشر الهجري.

ومن القدماء ابن شبة لم يذكر المنورة في كتابه تاريخ المدينة.

وأوعب من ذكر أسماء المدينة السمهودي في وفاء الوفاء، ولم يذكر المنورة أيضًا.

وأقدم من ذكر هذا الوصف - فيما أعلم - الصالحي المتوفى سنة **٩٤٢هـ** حيث عَنْوَنَ بجماع أبواب فضائل المدينة المنورة بكتابه سبل الهدى والرشاد.

قال أبو عبدالرحمن: كل بلاد يحلها نور فهي منورة بصيغة اسم مفعول.

ورسول الله - ﷺ - نور. قال الله - تعالى -: **﴿وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً﴾**.

وقال حسَّان بن ثابت - رضي الله عنه - يمدح رسول الله - ﷺ -:

فأمسى سراجًا مستنيراً وهاديًا
يلوح كما لاح الصقيل المهند

وقال:

واف وماض شهاب يستضاء به
بدر أنار على كل الأماجيد
مبارك كضياء البدر صورته
ماقال كان قضاء غير مردود

وقال :

بطيبـة رسـم للرسـول ومـعـهـد
منـير وقـد تعـفـو الـرسـوم وتهمـد

ولاتـنـمـحـي الآيات من دار حرمـة
بها منـبر الهـادي الـذي كان يصعـد

وواضـح آيات وبـاقـي معـالم
وربـع له فيه مصـلى ومـسـجـد

بها حجـرات كان ينـزل وسـطهـا
من الله نور يسـتـضـاء ويوقـد

معـالم لم تطمس على الـعـهـد آيهـا
أتـاهـا الـبـلى فالآي منهـا تجدد

إلى أن قال في رثائه - ﷺ -:

فبـينـاهـم في ذلـك الـنـور إذ غدا
إلى نورهـم سهـم من المـوت مقـصـد

وقال في أسد الغابة : وصفت عائشة - رضي الله - عنها رسول الله - ﷺ - فقالت : كان والله كما قال فيه حسّان :

متـى يبـد في الـداجي البهيم جبينـه
يلح مثـل مصبـاح الـدجى المتـوقّـد

فمـن كان أو من يكـون كأحمـد
نظام لحق أو نكـال لملحـد

وقال في رثائه بأبي هو وأمي:

كان الضياء وكان النور نتبعه
بعد الإله وكان السمع والبصرا

قال أبو عبدالرحمن: وفي كراسة السيد حسين هاشم ـ رحمه الله ـ وهي مجموعة من القصائد والتواشيح:

فالشمس يغرب نورها وضياؤها
أبدًا ونور المصطفى لايغرب

على أن بعض الأدباء عمَّق المعنى للنور على مذهب أهل التصوف كما في «لمعت نارهم» للشهرزوري. قال:

من طيبة أشرقت بالليل أنوار
ولاح منها لأهل الركب أسرار
تمايل الركب لما هبَّت ريح قبا
كأنَّ ريح قبا للركب خمار

قال أبو عبدالرحمن: وذِكْرُ المنورة جزءاً من عنوان كتاب ابن شبة خلاف المنهج العلمي وأمانة النقل، لأن ابن شبة لم يقل ذلك.

قال أبو عبدالرحمن: وللدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان وقفات مع مؤرخي المدينة، وتعريفات بما كتب عنها نشرها بالصفحة التراثية اللامعة التي تنشرها جريدة المدينة بإشراف الدكتور محمد يعقوب تركستاني.

وأكرمني أبو الفضائل والمواهب، الأستاذ أبو راكان إبراهيم الطاسان ـ حفظه الله ـ بصور من نسخ خطية عن طيبة: وهي الجواهر الثمينة في محاسن المدينة، والترغيب في سكنى المدينة لأحمد زروق، وترغيب أهل

المودة والوفا في سكنى دار الحبيب المصطفى، والدرة الثمينة في فضل المدينة، لمحب الدين أبي عبدالله محمد بن محمود بن أمين النجّار، وبهجة النفوس والأسرار في تاريخ هجرة المختار لأبي محمد عبدالله بن عبدالملك القرشي البكري القرطبي المرجاني.

قال أبو عبدالرحمن: وكنت صوَّرت من الرباط طيبة أم المساكين، وأرجو أن أفيد من الذخائر القلمية عن طيبة في مناسبة أخرى.

قال أبو عبدالرحمن: وأذكر من معاركي في اليفاع حول القومية العربية: (عندما برهنت على أن الله شرَّف العرب والعربية بالرسالة ولم يشرِّف الرسالة بهما). أن أحدهم شمَّ من ذلك رائحة الشعوبية فبادرت إلى تقسيم هذا موجزه:

١ ـ لاعروبة ولا إسلام.

٢ ـ عروبة ولا إسلام.

٣ ـ إسلام ولا عروبة.

٤ ـ عروبة وإسلام.

وقلت: إذا تكافأ القسم الثالث والرابع في الدين، فالفضل للقسم الرابع، تكريمًا لرسول الله ـ ﷺ ـ بتكريم قومه، ولأن مسألة الفضل والاجتباء ورد بها نص صريح صحيح، ولكن لامجال لهذا الفضل إلا بعد التكافؤ في الدين ومع الدين.

والفضل في الجملة، ومن خلالٍ تتعلق بالجبلة والنشأة، من كرم، وإيثار، وشهامة، ونجدة، وصبر، وصفاء فكر، وفطرة.

والعرب امتحنوا في جاهليتهم وإلى هذه اللحظة فلم تنمح فطرتهم التي

تربت على صفات الكمال.

إلاَّ أن مافضلوا به وبال عليهم، وحجة عليهم أمام الله، إذا فرطوا في هديه الشرعي، ولايتفلسف متفلسف بقانون مندل الوراثي وشبهه، فإنما نعني العرب بالجملة قبل أن تتباعد بقليل منهم الدماء، وأرحام الأباعد، والعرب أحرص الأمم على تعريب الأنساب في وبرها ومدرها.

ولايغالطن مغالط بأكاذيب المستشرقين، وحيلهم في دعوى الأمومة، فقد برهنت في مناسبات كثيرة على أن القاعدة والسنة التي لاتتبدَّل أن الله يحقِّق وعده الشرعي بقضائه القدري، ويصدق خبره الشرعي بإمضائه الكوني، ومادام النص ثبت في الصحيحين باجتباء العرب فلابد من يقين لاشبهة فيه أن أبا أي قبيلة من العرب سيكون نسله مطهرًا من السفاح، وإنما يحدث الفساد في الأفراد ممن لم يكن أبا لقبيلة.

وتفصيل هذا في غير هذا الموضع.

والموجز أن العروبة بلا إسلام لاوزن لها إلا بفضائل دنيوية، حيث أن جاهليَّ العروبة أزكى من جاهلي الأمم الأخرى: كرمًا، وإيثارًا، ومروءة، ونجدة، وصفاء.

وهذه فضائل موهبة إن تزكَّت بالإسلام كانت عونًا لصاحبها بإذن الله على مزيد من الإحسان، وإن حادَّت الإسلام كانت وبالاً وحجة على صاحبها.

أما الموهبة الكسبية التي يشترك فيها المسلمون عربهم وعجمهم فهي التي ذكرها ربنا سبحانه بقوله ـ تعالى ـ: ﴿كنتم خير أمَّة أخرِجت للنَّاس﴾.

لأن الله فسَّر ذلك بسياق الآية الكريمة.

وقلت: (إنها فضيلة كسبية) لأنها لاتُنال إلا بمزيد من الإيمان والعمل الصالح، ثم بعد ذلك يضاعف الله الفضل الكسبي بفضائل وهبية أجلها أن أمة محمد ـ ﷺ ـ أقصر الأمم أعمارًا، وأكثرها أجورًا، وهم الأخيرون في الدنيا، الأولون في الآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل الكبير.

وهذا توطئة للحديث عن حسيب نسيب ينسب إليه مجلس ينيف عمره على نصف قرن، وهو الشيخ عبدالحميد عباس، والمجلس بمزرعته بقباء مابين صلاة المغرب وأذان العشاء.

ثم تعهَّده من بعده أنجاله أحمد وإبراهيم وإخوتهما بارك الله فيهم.

ولسوء حظي لم أتصل به إلا في أواخر الأيَّام التي أقمتها بطيبة.

وكان مأمًا لرجال العلم ومحبي الاطلاع، وكان يحضره الوجهاء والوزراء، وعلية القوم ممن يزور طيبة.

يبدأ المجلس بالعلم وينتهي بالعلم إلاَّ أنَّه في الأولى مطارحة بين الحضور حيث يشترك الأديب والفقيه والمؤرِّخ وتلقى فيه أطايب الأشعار.

ويحضره شيوخ تناولوا تسعين عامًا تحتفظ ذاكرتهم بالكثير من المسائل التاريخية والبيئية.

وينتهي بقراءة في صحيح البخاري، مع شرح ميسَّر ونقاش مفتوح في مادة الحديث المشروح.

وفي الجمعة ذكريات تتعلَّق بأحد دروس الدكتور الشنقيطي المباركة بهذا المجلس، تأتي في حينها.

وصاحب المجلس سري، فاضل، من أعلام طيبة جمع بين السماحة، والندى، والتصدر لهموم الناس، والسعي في علاجها برأيه وجاهه وماله.

وهو عبدالحميد أحمد عبَّاس [١٣٢٧ ـ ١٤٠٨هـ]. ـ رحمه الله تعالى ـ ينتمي إلى تيم أسرة أبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ.

وأخواله من أسرة الطيَّار من أحفاد جعفر الطيَّار رضي الله عنه.

تقصَّى شيئًا من عاطر سيرته الشيخ محمد المجذوب بكتابه: علماء ومفكرون عرفتهم.

وشاعر العبَّاسية محمد محمود جادالله ممن لازم الشيخ وسجَّل كريم سجاياه بشعره، وطارحه البيان.

ومما قال في العباسية:

يامجلسًا فيه الأماني تمرع
سلم الذين بهم تزان الأربع
فيه المحبة والوقار تلازما
والفل من جنباته يتضوع
فيه لذكر الله حظ وافر
وبه القلوب مع الجوارح تخشع
إما أتيناه تطيب نفوسنا
أنسًا فلسنا في سواه نطمع
عبدالحميد نراه واسطة له
إما تحدث فالقلوب تسمع

خلق له سمح يسر جليسه
عبق كأنفاس الأزاهر مربع
وهو الذي يعطي المكارم حقها
وبكل درب للمعالي مولع
غرس الجميل فأورقت أغصانه
والمرء يحصد عادة مايزرع

وقال أيضًا عن هذا المجلس:

ياساكني أعلى قباء فديتكم
كل الوفاء لديكم مأمول
في مجلس يلقى الغريب كأنَّه
إما أتاه المرملون (سبيل)
في مجلس جمع القلوب على التقى
هو للخلائق مطعم ومقيل

إلى أن يقول:

أوليتنا صفو الوداد ولم تكن
مثل الذين ودادهم تمثيل
إن الذي يوفي الثناء لأهله
لاراغبًا أو راهبًا فجميل
هاج الندى شعري الغداة كأنني
لعبت بلبي من نداك شمول

وقال الشيخ عبدالحميد نفسه عن مجلسه:

نعم الجليس كتاب الله ندرسه

في مجلس طاب زوارًا وروادًا

في صفــوة من خيار الـنــاس يجمعـهم

علم الــبــيان وأضــحــوا فيه أســيادا

وللشيخ عبـدالحميد ديوان عرفت من نماذجـه التي لدي أنـه متوسط المستوى فنيًا، ولكن يرفعه إلى القمة سيرة صاحبه.

وعلمت أن ديوانه سيرى النور قريبًا إن شاء الله، وعلمت أنه ماقال الشعر إلا قرب الأشد أو بُعَيْده.

ومن لفتاته في التشكي قوله في قصيدة غريب:

نظرت إلى الـدنيا فراع فعالها

فؤادي بأشجـان وفقد قريـب

وأرزاء سقم لايزال أمــرهــا

فراق حبيب بعـد فقد حبيب

رمــتــني الـليالي بالخــطوب وبــالأســى

فعدت كإلف في الأنام غريـب

رجــال أعــزاء وكــانــوا أحبــة

فواحــزني من نأيهم وشحوبي

ذكرتهمو والعين حَرّى دموعها

فياشــد ماألقى وطول نحيبي

فمــن عاش في الــدنــيا سنــين طويلة

رأى من صروف الــدهــر كل عجــيب

ومــاالــعــمــر إلا ساعــة ثم تنــقضي

كمــر سحــاب في المــصــيف صبيب

أولئــك إخــواني شمــوس هداية

وكــانــوا بعــيش ناعــم وخــصــيب

ومن عاش سبعًــا بعــد سبعــين حجة

فورد المــنــايا منــه جد قريب

وله في التشوق:

أيا نسيم الصبــا بلِّغ أحبتنــا

أني مقيم على العلياء أرعــاها

ففي نسيماتهــا آثــار نشركم

وفي مرابعهــا ذكرى حفظناها

حيث العقيق وبطحان وأقنية

تروي الــنخيل ويشفي النــاس رياهــا

وحيث وادي قبــا والماء يلبسه

برد الــربيع وأخــلاق ألفنــاها

وفي العــوالي وفي قربان أودية

ياحبــذا هي مرتــادا وسكناها

إن أنسَ لا أنسَ وادي الــسد يجمعنا

وكــم به من ليال طاب مثــواهــا

ومن الكتب الــسعودية الناضجة المبكرة في الفلاحة، كتاب المرشد في زراعة الأشجار والخضار للشيخ عبدالحميد طبع سنة ١٩٦٩مـ.

ومن روّاد العباسية الشيخ مسلم حليت وقد علمت أن له كتابًا كبيرًا حفيلاً في هذا الغرض، سيرى النور قريبًا إن شاء الله[٢].

* * *

قال أبو عبدالرحمن: العلم في طيبة (حسب احتكاكي بجمهور حملة القلم) شرعي ولدني، فاللدني ذوق لدى العامة يتحاكونه.

والشرعي بعامة لجمهور المثقفين، والقدح المعلى لحديث رسول الله ـ ﷺ ـ رواية ودراية، وكذلك علوم الحديث ورجاله، والمكتبات حفيلة بذلك، والسحب من المكتبات بنسبة لامثيل لها.

وكتب الفروع مقروءة في الدرجة الثانية، وأعلى نسبة للفقه الحنفي، ثم المالكي، ثم الشافعي، والحنبلي بقلة.

واتجاه عامة الشبيبة إلى فقه أهل الحديث.

ولهذا لم يكن رواج الكتاب الحديثي واقتناؤه لأجل التبرك، أو عمارة المنزل بالديكور، بل كان ذلك عن عشق، ومطالعة، وتفقه.

ومرجعهم في تصحيح الحديث وتمريضه إلى كتب الشيخ الألباني في الأعم الأغلب.

وسواء حِرْتُ في نجد، أو رحلتُ إلى طيبة، فإنني كثير البكاء على شبابي شديد الحزن والأسى على أفعوان استهلكته في تدوين الشعر الملحون عن رواته من أهل السر، ومسكة، وضرية، والقرى المجاورة... إلخ، وبالمقابل أجد هؤلاء الشباب في بداية أفعوانهم، محدثين، وفقهاء، يستحضرون أدلة الأحكام في عباداتهم، ومعاملاتهم.

---

(٢) طبع الكتاب بحمد الله سنة ١٤١٢هـ آخرها.

قال أبو عبدالرحمن: لقد ذهب الشباب ـ والله خير مستخلف ـ سبهللا، إذ كان أساتذة جيلنا قدوتنا في كتابة المقالة الاجتماعية، والتاريخ المحلي، وآداب الرسالة، والمهجر، وأسماء البلدان بالجزيرة، وأنساب الأسر!!.

وأساتذتنا في المراحل الدراسية يجروننا إلى الجنة بالسلاسل، فنأبى بالحيلة مع أن علوم المنهج الدراسي ليست كالعلوم التي تتلقّى على ركب المشايخ اليوم.

وزادنا حرمانًا يومها أن الكتاب شحيح، ووسائل التصوير، والنسخ، والتسجيل غير ميسورة.

والقرآن وتفسيره، وعلومهما أصل الفقيه والمحدث وعمدتهما، ولكن القدح المعلى في طيبة للقراءات، والتجويد، فمن لم يكن مجيدًا في التلاوة، فهو مجيد في التلقي والتذوق.

إن تذوقهم للتلاوة المجودة ذوق فريد، وهم سميعة لايرضي ذوقهم إلا السابق والمجلي من المقرئين.

واللغة العربية مهضومة القدر في طيبة، وإنما تقتني العامة المنجد، أو القاموس، فإن بطرت اقتنت صحاح الجوهري.

وأما الأمهات فلدى قلة من ذوي التخصص.

وحيثما أُطلقت اللغة فالمراد النحو، والإجادة فيه لمن مارسوا التدريس سنين عديدة، من أمثال الدكتور الخطراوي، فهو نحوي نقاد.

والمبرز من العامة من أتقن مختصرًا في النحو إتقان كتابة في الأعم أيضًا مع ذهول عن استحضار القاعدة، ولم أر في حلقات المسجد النبوي درسًا

للنحو، وليس بمستبعد أن يوجد درس فيه.

بل علمت من الأستاذ أكرم عبدالحفيظ أن لبعض الشناقطة دروسًا في النحو في بيوتهم.

وإنما المستبعد أن يوجد درس في اللغة العربية: متنًا، وعلومًا، وفقهًا.

بل لاأعلم هذا في الجزيرة العربية بإطلاق.

وقد درست كتيبًا صغيرًا في أغلاط الفقهاء اللغوية بتحقيق الدكتور الضامن، وأردت تنزيله على أصول ابن فارس، وذلك بمسجد سلطانة بالرياض لمدة لاتزيد على ربع ساعة آخر درس شرح صحيح البخاري، فكان الجمهور يتناقص يومًا بعد يوم.

وهذه ظاهرة أثارت عجب السيوطي منذ قرون.

قال الزبيدي ـ رحمه الله تعالى ـ وهو بصدد الحديث عن وظائف الحفّاظ من علماء اللغة، وقد ذكر الإملاء أعظم تلك الوظائف، فقال: «كما أن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء، وقد أملى حفّاظ اللغة من المتقدمين الكثير، فأملىٰ أبو العباس ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة رأيت منها مجلدًا، وأملىٰ أبو محمد القاسم بن الأنباري، وولده أبو بكر مالا يحصى، وأملىٰ أبو علي القالي خمس مجلدات، وغيرهم.

وطريقتهم في الإملاء، كطريقة المحدثين، يكتب المستملي أول القائمة: مجلس أملاه شيخنا فلان، بجامع كذا، في يوم كذا، ويذكر التاريخ، ثم يورد المملي بإسناده كلامًا عن العرب والفصحاء، فيه غريب يحتاج إلى التفسير، ثم يفسره، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده،

ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسنـاده مما يختاره.

وقد كان هذا في الصدر الأول فاشيًا كثيرًا، ثم ماتت الحفَّاظ، وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد، واستمرَّ إملاء الحديث.

قال السيوطي: ولما شرعت في إملاء الحديث سنة ٨٧٣، وجددته بعد انقطاعه عشرين سنة من سنـة مات الحافظ أبو الفضل ابن حجر أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره، فأمليت مجلسًا واحدًا، فلم أجد له حملة، ولا من يرغب فيه، فتركته.

وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي، له أمالي كثيرة في مجلد ضخم، وكانت وفاته في سنة ٣٣٩ ولم أقف على أمالي لأحد بعده»[٣].

قال أبو عبدالرحمن: وأشد المعارف هضمًا بطيبة المباركة أجناس الأدب، فإن وجدت عناية بالأدب لدى الخاصة، فهي عناية تراثية بحتة لا تتجاوز الشعر التراثي إلى الشعر الحداثي، والرواية، والقصة والمسرحية.

بل لا تجد في هذه الفنون مذاكرًا، ولهذا كانت المكتبة الأدبية التجارية نادرة بين المكتبات التجارية الدينية الواسعة.

وأما علوم الفلسفة والأفكار، ففنون مهجورة معزوف عنها، ولا يتعنىٰ لجلبها طالب العلم بطيبة إن لم يجدها في المكتبات المحلية.

وكنت أحضرت معي إلى طيبة المبيضة الأولى لكتابي «العقل الأدبي»، وأردت تصحيح نقلي عن مصادري ومراجعي، فأعطيت بعض الوريقات

---

(٣) تاج العروس ١/٣٠ـ٣١ط. الكويت.

للدكتور عبدالباسط بدر، ليراجع لي في مكتبته، فصحح نقلي ـ جزاه الله خيراً ـ في بعض المواضع، وعين المصدر لشعرٍ لنزار نَسَبْتُهُ إلى أدونيس.

ومست الحاجة إلى مراجعة نقلي عن ديوان معين بسيسو، فجرى الاتصال بالمكتبات التجارية، وبمكتبات الخاصة من قبلي، ومن قبل الدكتور عبدالباسط، ومن قبل النادي الأدبي، ورئيسه محمد هاشم رشيد، فعدموا أي يد تملكه بطيبة سوى مكتب للمنظمة الفلسطينية وجد به نسخة واحدة تمت استعارتها.

وفي محاضرة لي بالنادي قرَّبت أدب الحداثة بتحليلي لقصيدة «حلم ليلة فارغة» لأحمد عبدالمعطي حجازي حيث نفيت عنها دعاوى نقادٍ حملوها مالا تحتمل وأثبتُّ أنها مجرد سخرية بالشاعر الرومانسي.

فوجدت من يعجب ويطرب لإيقاعي لتفعيلات القصيدة، ويطعم شيئًا ماظن أنه يجده في أدب الحداثة.

وبعد المحاضرة بيومات صارت مسألة القصيدة الحديثة معركة مؤدبة بين جمهور المحاضرة، وأساتذة المراحل الدراسية لاسيما في الجامعات.

وفي جلسات عديدة ـ لاسيما ندوة العباسية ـ وُجِّهتْ إليَّ أسئلة لحوحة، كأنها تستغرب مشروعية الحديث في أدب حداثي!!

قال أبو عبدالرحمن: ومهما كان التقدير والتقصير في تعاطي أدب الحداثة فإن طيبة الغراء لا تُغبن، وقد اصطفت الحديث النبوي أمَّ معارفها، وهو علم دعا رسول الله ـ ﷺ ـ لحملته بنضرة الوجوه بينما أعلام أدب الحداثة ذوو وجوه كاسفة مابين طائفي، وماركسي، وغير ملتزم.

قال أبو عبدالرحمن: ومن أروقة العلم الذهبية بطيبة الطيبة ديوان

صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز آل سعود أمير المنطقة، وقد حضرت فيها عدة محاضرات وندوات، وساهمت بمحاضرتي عن عدم التلازم بين الكفر والتكفير.

وقد شوقني إلى ندوات سموه أخي وزميلي أبو باسم عبدالله بن داود الفايز الشمري الذي ابتلعه روتين العمل الإداري المرهق، وكانت تباشيره جذوة علم متقدة أرجو أن لاتخبو في قتام الإدارة.

وكنا نحظى منه في المجالس العلمية والترفيهية بمثل أفاويق الناقة، ومافطمنا عن المزيد من مهاتفته إلا القناعة بكثرة أعبائه.

وأجمل مافي ندوة سموه أن المحاضر لايُهان، وأنه لامجال للمهاترة والمهارشة كما يحصل على بعض المنابر، وإنما الحوار منظَّم بروح ودية.

وفي إحدى زياراتي لطيبة - جعل الله بقية حياتي ومماتي بها بخاتمة حسنة - زرت شيخ المقرئين أحمد عبدالعزيز الزيات بمجمع الملك فهد للمصحف الشريف، وهو خليفة الشيخ عامر السيد عثمان، وكان رجلاً قصيراً مربوعًا ضريرًا يمد رجليه على كرسي، فعجبت لنور وألق يشرق من وجهه، فسبحان من يهب لعباده النور.

وأردت أن أُسمعه شيئًا من تلاوتي في أويقات قصيرة لأحمل عنه إجازة بأعلى سند عنده.

ولم يرد أن يكسر خاطري برد حاسم، فكان يردد: تحضر معنا، ويكون إن شاء الله خير.

قال ذلك، وهو يعلم مقصدي بأنني أريد حمل إجازة في أسبوع؟!!

فتوسط لي عنده العلامة الشيخ سيبويه صاحب البرنامج الإذاعي

الذائع الصيت في القراءة، وأشعره بأن الغرض إجازة للبركة.

وظل الشيخ في هدوئه يردد: يحضر معنا، ويكون إن شاء الله خير.

فلما رأى الإلحاح مني، ومن الشيخ سيبويه، وثب كالهزبر، وصاح بأعلى صوته: ماينفعش ياابني.

دا العلم أمانة.

فتضاءلت إلى مادون عظمي، وليس ذلك لمجرد خجلي، بل إعجابًا بعلم الرجل، ودينه، وأمانته.

ولو كنت على كرسيه لجاملت، لأن الحياء أحيانًا يغلبني في أشياء غير شنيعة، وتلك خصلة ذميمة لأنه لاحياء في الحق.

وعندما كنت ألح لم يدر بخلدي قط أن الشيخ السديس ـ وهو من أئمة القرَّاء ـ قطع المواصلة معه.

ولم يدر بخلدي قط أن الشيخ الحذيفي ـ وهو من أئمة القرَّاء أيضًا ـ واصل معه بعد شهرته سنوات، ولا أدري، هل منحه الإجازة بالقراءات السبع أم لا؟!

ولما أحس الشيخ بتضائلي بنور بصيرته باسطني في الحديث، ووعدني أن يتفرَّغ لي بشرط أن ألازمه أشهرًا منجَّمة حسب ظروفي خلال العام أو الأعوام.

وشطحت شطحة عظيمة إذ أردت طلب القراءة على مثل الشيخ الزيات، وكأنه قد غاب عن ذهني أن قراءتي قراءة العوام في نجد قبل جيل الصحوة.

وعامة العلماء، وطلاَّب العلم كانت قراءتهم قراءة العوام.

حدَّثني الدكتور عبدالعزيز قاري - وسمعت ذلك بخبر التواتر في الرياض مرارًا - أن والده عبدالفتاح قرأ في حفل أقامه المعهد العلمي بالرياض في حدود عام ١٣٧١هـ تقريبًا، وقد حضره سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، وعدد من المشايخ، فقرأ الشيخ عبدالفتاح: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهنَّ**...﴾.

بقراءة هشام، فنطق إبراهيم، هكذا: إبراهام.

وأمال ابتلىٰ بكسر اللام كسرًا يجنح إلى الفتح.

فصاح عليه القوم من كل جانب يصلحون له مايحسبونه خطأ، وهو يعيد تلاوته بإصرار، وهم يعيدون تعديلهم بإصرار.

ولما عيل صبرهم راجع بعضهم سماحة الشيخ بن إبراهيم مستعظمين التصرف في القرآن.

وظل سماحة الشيخ ينصر الشيخ عبدالفتاح ويدافع عنه.

وبعد أويات دعاه سماحته، وأوصاه بأن لايتعدى المتعارف عليه في التلاوة.

هكذا كنا يومها لانعرف قراءات، ولا مخارج حروف، ولاتجويد.

أما التغني فهناك نوع من تغني العوام، يأخذ بتلابيب القلوب على غير قاعدة.

فكنت - رغم صغر السن - أهتز طربًا، وتخنقني العبرة مع تلاوة حمد بن عبَّاس - رحمه الله تعالى - بشقراء، وتلاوة سليمان بن علي بشقراء، وتلاوة عمر بن فنتوخ بأشيقر، وتلاوة الشيخ عمر أبو بطين بشقراء - رحم الله

جميعهم ـ وتلاوة الشيخ صالح بن غصون ـ متع الله به ـ بالجامع الوحيد يومها بشقراء.

كان تغنيهم مرقصًا ومرققًا للقلوب في آن واحد، وهكذا تلاوة شيخنا سماحة الشيخ ابن باز يوم كان في سلخ الشباب، وابتداء الكهولة إذا صلى التراويح.

وكل هذا التغني الجميل ـ وهو لم يتلاش من ذاكرتي بعد ـ يتزحزح رويدًا رويدًا بعد جيل القرَّاء.. هذا الجيل الذي ننعم به اليوم.

قال أبو عبدالرحمن: وكنت أشرفت على مخطوط للمؤرخ الفقيه الأدفوي صاحب الكتاب عن علماء الصعيد، ألفه عن الغناء والسماع، فعقد فيه فصلًا نفيسًا عن التغني والقراءة بالألحان، واستقر في علمي ووجداني أن التغني غير الغناء والألحان.

فالتغني جمال وخشية معًا، أما الغناء فتأخذني منه قشعريرة، وفزع كتسجيل عبدالباسط ـ عفا الله ـ عنه لسورة «والشمس وضحاها» في شريط قصار السور، لايلتذ المسلم لسماعه ريثما تأخذه رعدة وقشعريرة، لأنه غناء بحت، كأنك تسمع السنباطي، وغيره وهم يلحنون: حمامة الأيك من بالشدو طارحها، وماأشبه ذلك.

ورأيت لدى بعض الإخوان بطيبة المنورة تسامحًا في بعض التلاوة عندما ينخرط ولو ثواني إلى لحن من ألحان المقامات، وكان شريك سروري، ومروِّح همومي الأستاذ أكرم عبدالحفيظ الأحمدي ينبهني أحيانًا إلى طلعات للسيكا، أو الرصد، لايشعر بها إلا من لطفت أذنه ورهف سماعه.

ولست أرى ـ والعلم عند الله ـ في إدخال الألحان بالتلاوة خيرًا، وقمين

في هذه الحالة أن يؤزر المقرىء وهو يريد أن يؤجر، والتلاوة تغنٍّ، وليست غناء.

وإن بقي في العمر بقية، وفي الدنيا فسحة، فأملي مواصلة التلاوة لدى الشيخ الزيات رغم ضعف حبالي الصوتية، ورغم عدم صلاحيتي إمامًا مقرئاً في مسجد يُقصد، وإنما هدفي التمتع بنعمة علم حرمنا منه أيام الطلب.

* * *

وحدَّثني أخي الشيخ محفوظ الشنقيطي ـ مدير عام العلاقات بمجمع الملك فهد للمصحف الشريف ـ عن شيخ القرَّاء بالمجمع، الشيخ عامر السيد عثمان ـ رحمه الله تعالى ـ أنه فقد حباله الصوتية في السنوات السبع الأخيرة من حياته، وكان يدرس تلاميذه القراءة، فلا يفصح لهم إلا بشهيق وإيماء.

ثم مرض مرض الوفاة، وكان طريح السرير الأبيض بالمستشفى، ففوجيء أهل المستشفى بالرجل المريض فاقد الحبال الصوتية يقعد، ويدندن بكلام الله بصوت جهوري جذَّاب، مدة ثلاثة أيام، ختم فيهنَّ القراءة من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ثم أسلم الروح إلى بارئها.

* * *

قال أبو عبدالرحمن: ولاأخلي العيبة من فائدة حديثية على منهج الأسلاف الذين طيبوا رحلاتهم شيء من صنعة الحديث، وضمنوها شيئًا من فهارسهم وإجازاتهم.

والفائدة في هذه الرحلة عن «فضل مسجد الفتح» حيث أورد الحديث

من مسند أحمد بروايتي عن مشايخي .

قال أبو عبدالرحمن : أخبرني بالإجازة العامة الشيخ أبو محمد عبدالحق بن عبدالواحد بن محمد بن الهاشم ، المدرس بالمسجد الحرام ، والد الشيخ أبي تراب الظاهري : أخبرنا الحسين بن حيدر الهاشمي ، وخليل بن محمد بن حسين بن محسن الأنصاري ، وأبو محمود هبة الله بن محمود الملائي المهدي ، وعبدالتواب بن عبدالوهاب الاسكندر آبادي ، كلهم : عن حسين بن محسن الأنصاري : عن محمد بن ناصر الحسيني اليماني الحازمي : عن محمد بن علي الشوكاني ح .

قال أبو عبدالرحمن : قال أبو محمد عبدالحق : وأخبرنا أحمد بن عبدالله البغدادي : عن عبدالرحمن بن عباس بن عبدالرحمن : عن الشوكاني : عن عبدالقادر بن أحمد الكوكباني : عن عبدالخالق بن أبي بكر المزجاجي : عن إبراهيم بن حسن الكردي : عن البابلي : عن سالم بن محمد السنهوري : عن محمد بن أحمد الغيطي : عن الزين الأنصاري : عن الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني : عن أبي حفص المراغي : عن الفخر بن البخاري : عن أبي علي الرصافي : عن هبة الله بن محمد الشيباني : عن الحسن بن علي التميمي المعروف بابن المذهب : عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي : عن عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل : عن أبيه ح .

قال أبو عبدالرحمن : وأروي بأسانيد أخرى عن أبي محمد عبدالحق بأسانيده إلى ابن حجر بنفس إسناد ابن حجر المذكور آنفًا .

وأخبرني بالإجازة العامة كل من الشيخين أبي تراب الظاهري ،

وإسماعيل بن محمد بن ماحي بن عبدالرحمن الأنصاري: عن أبي محمد عبدالحق بنفس الإسناد.

قال أبو عبدالرحمن: وأخبرني الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري إجازة: أخبرني أبو الفضل عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني: عن شيخنا الشيخ محمد إمام السقا خطيب الجامع الأزهري، وبدر الدين الحسني الدمشقي، ويوسف النبهاني: عن والد الأول الشيخ إبراهيم السقا: عن الشيخ محمد بن سالم بن ناصر الفشني الشهير بثعيلب: عن الشهابين أحمد بن الحسن الجوهري، وأحمد بن عبدالفتاح الملوي كلاهما عن الشيخ عبدالله بن سالم البصري: عن الشيخ البابلي: عن علي بن يحيى الزيادي: عن الشهاب أحمد بن محمد الرملي: عن الشمس محمد بن عبدالرحمن السخاوي: عن العز عبدالرحيم بن محمد الحنفي: عن أبي العباس أحمد بن محمد الجوخل: عن أم أحمد زينب بنت مكي الحرانية: عن أبي علي حنبل بن عبدالله بن الفرج الرصافي: عن أبي القاسم هبة الله بن محمد بن عبدالواحد الشيباني: عن أبي علي الحسن بن علي التميمي: عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي قال: حدَّثنا أبو عبدالرحمن عبدالله بن الإمام أحمد: قال حدَّثني أبي: حدثنا أبو عامر: حدَّثنا كثير (يعني ابن زيد): حدثني عبدالله بن عبدالرحمن بن كعب بن مالك: حدَّثني جابر (يعني ابن عبدالله): أن النبي - ﷺ - دعا في مسجد الفتح ثلاثًا: يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعرف البشر في وجهه.

قال جابر: فلم ينزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو

فيها فأعرف الإجابة(٤).

قال أبو عبدالرحمن: هذا إسناد عال بيني وبين رسول الله - ﷺ - أربعة وعشرون من الفضلاء.

وجابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الخزرجي رضي الله عنه، آخر من مات من الصحابة رضوان الله عليهم بالمدينة المنورة، وقد غزا مع رسول الله - ﷺ تسع عشرة غزوة بعد أحد.

وأما الراوي عنه عبدالله بن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، فمجهول الحال بالنسبة لنا نحن الذين لم نجد له ترجمة تذكر عدالته وثقته.

وإنما ذكره ابن حبَّان في الثقات طردًا لأصله في اعتبار حال المسلم العدالة في الأصل.

ولم يذكر عنه سوى قوله: الأنصاري من أهل المدينة يروي عن أبيه.

روى عنه عبدالله بن محمد بن عقيل، وعاصم بن عبيد الله.

وهذه هي نفس الإفادة التي عند الإمام البخاري، نقلها عنه ابن حبَّان، وقبله ابن أبي حاتم عن والده باختصار(٥).

وذكر البخاري، عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مالك الأنصاري، وقال: سمع عمه معقلا.

روى عنه عبدالملك بن قدامة(٦).

---

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٣٣٢.

(٥) انظر التاريخ الكبير ٥/١٣٣، والجرح والتعديل ٥/٩٥ وقال: روى عن أبيه.. روى عنه عبدالله بن محمد بن عقيل. سمعت أبي يقول ذلك.

(٦) التاريخ الكبير ٥/١٣٣.

ولكن ابن أبي حاتم سمّاه عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك الأنصاري روى عن عمه معقل. . روى عنه عبدالله بن قدامة الجمحي. . سمعت أبي يقول ذلك.

روى أيضًا عن جابر بن عبدالله[7].

وذكر ابن حجر شخصًا ثالثًا يلتبس بهذين فقال: عبدالله بن عبدالرحمن بن كعب بن مالك الأنصاري: عن أبيه، وجابر.

وعنه كثير بن زيد، وعبدالله بن محمد بن عقيل. فيه نظر.

قلت: أما الذي روى عن جابر، وروى عنه كثير بن زيد، فهو كما ذكر.

وحديثه عن جابر في الدعاء في مسجد الفتح.

وأما الذي روى عن أبيه، وروى عنه ابن عقيل، فالذي أظنه أنه انقلب، وأنه عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك شيخ الزهري، وهو مترجم في التهذيب، فلعله ابن عمه[8].

قال أبو عبدالرحمن: يُبعد هذا الظن الذي ظنه الحافظ أن أبا حاتم ميّزه بجده، فذكر أن جده عبدالله، وأبا جده كعب.

وميَّز هو، والبخاري، الآخر بأن جده المباشر كعب.

وعلى هذا جاء إسناد عند الفسوي، فقال: حدَّثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدَّثني عبدالملك بن قدامة: عن عبدالله بن عبدالرحمن ابن

---

(٧) الجرح والتعديل ٥/ ٩٥.

(٨) تعجيل المنفعة ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ وانظر تهذيب التهذيب ٦/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

عبدالله بن كعب بن مالك: عن عمه معقل[٩].

فهذا عمه مجهول الحال، وهو معقل بن عبدالله الأنصاري.

فصحَّ أنه غير عبدالرحمن بن عبدالله، إذ هذا يكون معقل أخاه لاعمه.

وعلى أي حال، فلا يزال مجهول الحال، وربما دل ذكر الأئمة له، وسكوتهم عنه، كالبخاري على أنه مستور أي ظاهر العدالة مجهول الباطن.

والراوي عن عبدالله، كثير بن زيد وثقه الجمهور، وضعفه آخرون، ولينوه، ولم يفسروا وجه ضعفه[١٠].

وشيخ أحمد، الإمام الحافظ أبو عامر عبدالملك بن عمرو القيسي العقدي البصري.

قال الهيثمي، عن هذا الإسناد: رجاله ثقات[١١].

قال أبو عبدالرحمن: في هذه العبارة تسامح، وإنما في إسناده مجهول الحال، وليس مجهول الحال ثقة إلا على مذهب ابن حبان في توثيق كل مجهول ومستور.

قال أبو عبدالرحمن: المسلم على البراءة في الأصل إذا وردت عليه دعوى حد، أو مال، أو تفسيق، أو تكفير.

أما العدالة المقتضية قبول خبره، وشهادته، فتحتاج إلى علم بحاله.

قال أبو عبدالرحمن: وأورده البزار في مسنده، فقال: حدَّثنا محمد بن

---

(٩) انظر المعرفة والتاريخ ١/٢٦٨.

(١٠) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ٨/٤١٣ ـ ٤١٥.

(١١) مجمع الزوائد ٤/١٢.

المثنى، وعمرو بن علي، ومحمد بن معمر قال: حدَّثنا أبوعامر.

قال أبو عبدالرحن: ساقه عن العقدي بنفس إسناد أحمد، ومتنه، ثم قال:

وقال محمد بن المثنى في حديثه: في مسجد قبا.

قال البزار: لانعلمه يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد(١٢).

قال أبو عبدالرحمن: صلاته - ﷺ - في مسجد الفتح ليست محل خلاف بين أهل السيرة، وقد نصوا على إجابة دعوته - ﷺ -.

قال أبو زيد عمر بن شبة: «حدَّثنا أبو غسان: عن ابن أبي يحيى: عن محمد بن إبراهيم: عن رافع بن خديج: أن النبي - ﷺ - صلًّى في المسجد الصغير الذي بأحد في شعب الجرار على يمينك لازقًا بالجبل.

حدَّثنا أبو غسّان: عن ابن أبي يحيى: عن أسيد بن أبي أسيد: عن أشياخهم: أن النبي - ﷺ - دعا على الجبل الذي عليه مسجد الفتح، وصلًّى في المسجد الصغير الذي بأصل الجبل على الطريق حتى مصعد الجبل.

قال أبو غسَّان: أخبرني عبدالعزيز بن عمران: عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب قال: دعا رسول الله - ﷺ - في المسجد الأعلىٰ على الجبل يوم الاثنين ويوم الثلاثاء، واستجيب يوم الأربعاء بين الصلاتين.

قال، وأخبرني عبدالعزيز: عن سعد بن معاذ الديناري: عن ابن أبي عتيق: عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: دعا رسول الله - ﷺ -

---

(١٢) كشف الأستار ١/٢١٦.

في المسجد الأعلى يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين.

قال، وأخبرني عبدالعزيز: عن ابن سمعان: عن سعيد، مولى المهديين، قال: أقبل النبي - ﷺ - من الحرب فأدركته صلاة العصر فصلاًها في المسجد الأعلى.

قال، وأخبرني عبدالعزيز: عن محمد بن موسى: عن عمارة بن أبي اليسر، قال: صلًى النبي - ﷺ - في المسجد الأسفل.

قال، وأخبرني عبدالعزيز: عن ابن أبي الزناد: عن سالم أبي النضر، قال: دعا النبي - ﷺ - يوم الخندق: اللهم منزل الكتاب، ومنشيء السحاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم.

وعن ابن أبي يحيى: عن الفضل بن مبشر: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما - قال: دعا النبي - ﷺ - على الجبل الذي عليه مسجد الفتح، من ناحية الغرب، وصلًى من وراء المسجد.

حدَّثنا أبو غسَّان: عن ابن أبي يحيى: عن الحارث بن فضل: أن النبي - ﷺ - بدأ فصلًى أسفل من الجبل يوم الأحزاب، ثم صعد فدعا على الجبل.

حدَّثنا أبو غسَّان: عن ابن أبي يحيى: عن سلمة بن أبي يزيد: عن جابر - رضي الله عنه -: أن النبي - ﷺ - قعد على موضع مسجد الفتح وحمد الله، ودعا عليه، وعرض أصحابه، وهو عليه.

حدَّثنا أبو غسَّان: عن ابن أبي يحيى: عن خالد بن رباح: عن المطلب ابن عبدالله بن حنطب: أن النبي - ﷺ - دعا يوم الاثنين في مسجد

الفتح : واستجيب له عشية الأربعاء بين الصلاتين.

قال أبو غسَّان : وسمعت غير واحد ممَّن يوثق به : يذكر أن الموضع الذي دعا عليه رسول الله - ﷺ - من الجبل، هو اليوم إلى الأسطوانة الوسطىٰ الشارعة في رحبة المسجد الأعلى»[13].

قال أبو عبدالرحمن : كل هذه شواهد مصححة لحديث جابر.

وإنما الذي بقي بدون شاهد يصححه أو يحسنه تجربة جابر - رضي الله عنه - الدالة على أن لهذا المكان خِصِّيصة فضل.

وأما رسول الله - ﷺ - ففي أي مكان دعا فهو أكرم الخلق عند ربه.

ومن جرَّب إجابة الدعوة في مسجد الفتح فليعاود الدعاء، فإن المجريات يؤخذ بها.

قال يونس بن عبيد : ليس رجل يكون على دابة صعبة، فيقول في أذنها : ﴿**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون**﴾. إلا وقفت بإذن الله.

هذا خبر مقطوع رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة من حديث المنهال ابن عيسى، وهو مجهول.

وقال ابن قيم الجوزية عن هذا الدعاء : قال شيخنا [يعني ابن تيمية] - قدَّس الله روحه -: وقد فعلنا ذلك، فكان كذلك.

قال أبو عبدالرحمن : آثار هذا الدعاء من المجريات، والمجريات لايُشترط فيها أن تكون دعاء شرعيًا موظفًا بالنص الشرعي التوقيفي.

بل يكفي أن تكون دعاء شرعيًا، ويكون أثرها مجربًا من قبل أهل

---

(١٣) تاريخ المدينة المنورة ١/٥٧ - ٦٠.

السنة، والصلاح، ويكون توظيفها لوقت ما، أو حالة ما، باجتهاد من النص يتأوله ذوو العلم كما هاهنا، فالدعاء آية من كتاب الله، ولو أنزل القرآن على جبل لتصدَّع من خشية الله بالنص، وكل شيء يسبح بحمد ربه، وكل شيء منقاد لربه بقضائه الكوني، فهذان المعنيان داخلان في قوله: ﴿وله أسلم﴾.

وصاحب الدابة الصعبة يبغي انقيادها له مستعينًا عليها بقدرة الله الذي أسلم له من في السماوات والأرض.

وإذًا فلا يشترط التوقيف بتوظيف النص في الدعاء، بل يتأوَّله ذوو العلم فيوظفونه في حالة ما.

وهكذا مكان الدعاء في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ صح أن رسول الله ـ ﷺ ـ دعا فيه، فاستجيب له.

وقد يقال: لم يقصد ـ ﷺ ـ المكان لفضيلة فيه، بل صلَّى فيه لأن ذلك مكان وجوده عندما أراد الدعاء.

قال أبوعبدالرحمن: صلاته في ذلك المكان ثلاثة أيام متواليات دلَّ على أنه قصد المكان.

فإذا وجدت شواهد تصحح، أوتحسِّن تجربة جابر ـ رضي الله عنه ـ أو صحَّت تجارب لغيره من خالف أو سالف فنتائج التجربة متبعة.

* * *

وفي بعض الجلسات في منزل الدكتور نايف الدعيس تارة، وفي منزل الشيخ حماد الأنصاري تارة، وفي مهاتفاتي لرفيقي في الذهاب والإياب، الأستاذ أكرم عبدالحفيظ، تجمَّعت في ذهني أصداء المعركة العلمية حول

الحديث المنسوب إلى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عن الصلاة في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ أربعين صلاة.

وحرصت على متابعة المعركة من مصادرها المباشرة، وهي مقالة الشيخ حمَّاد بعنوان رفع الاشتباه عن حديث من صلًّى في مسجدي أربعين صلاة»، الذي نشره بمجلة صوت الجامعة.

صوَّر لي المقال فضيلته، وذيَّله بخطه يفيد أن أحد علماء الأحناف بحث الحديث فقهيًا، وأن رسالته مخطوطة بالمكتبة المحمودية، فصوَّرت لي مع عشرات غيرها، بعناية الشيخ السيد حبيب ـ وفقه الله ـ.

وأطلعت على كلام الشيخ عطية محمد سالم عن إثباته لهذا الحديث غير الثابت[14].

وأطلعت على بحث بعنوان «الأمين في حديث الأربعين» للشيخ عبدالعزيز بن عمر الربيعان، وهو كتيب طبع سنة ١٣٩٩هـ ولم أجد له أثرًا في المكتبات التجارية، فصورته من مكتبة الدكتور نايف الدعيس، وقد ناقش كلاً من الشيخ حمَّاد، والشيخ عطية، وبيّن بطلان الحديث سندًا ومتنًا.

قال أبو عبدالرحمن: وقد عنيت بما كتبه علماء الحديث، والمصطلح عن الحديث الضعيف، وبيَّنت أن البحث في أي حديث ضعيف، إما أن ينتهي إلى التوقف فيه لتخلف البرهان الخارجي على ثبوته أو بطلانه، ومثلت لذلك بكتيبي عن «تضعيف حديث دخول الجنة بجواز من الرحمان».

---

(١٤) أضواء البيان (التتمة) ٨/٥٧٢ ـ ٥٧٥.

وإما أن ينتهي إلى جزم بصحته أو حسنه لقيام برهان من الخارج على أحد ذينك، ومثلتُ لذلك بكتيبي «البرهان على تحسين حديث سلمان عن خطبة رسول الله - ﷺ - قبيل رمضان».

وإما أن ينتهي إلى جزم ببطلانه لقيام البرهان على ذلك، ومثلت له بكتيبي عن «المغتاب يقيء في الدنيا لحمًا» وشبهه.

وحديث صلاة الأربعين في مسجد رسول الله - ﷺ - من هذا النوع الأخير، وفيما صح وثبت عن فضيلة مسجد رسول الله - ﷺ - غنية.

ولا حاجة لشرح حديث لم يثبت، ولكنني أذكر الكتاب الذي ألف في شرحه لمجرد الثقافة البشرية، ثم أُثنِّي بالمسألة التوثيقية.

قال الشيخ يوسف الغزي الحنفي: قد سئلنا عن الحديث الوارد فيمن يصلي أربعين صلاة في المسجد الشريف النبوي، فأجبنا بعد حمد الله، والصلاة والسلام على رسوله، ومن والاه، بأنه قد أخرج أحمد والطبراني في الأوسط برجال ثقاة: عن أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه -: أن رسول الله - ﷺ - قال: «**من صلَّى في مسجدي أربعين صلاة**. زاد **الطبراني**، «**لاتفوته صلاة كتب له براءة من النار، وبراءة من العذاب، وبراءة من النفاق**». **انتهى**.

وتحقيق المقام أن الحديث مطلق في جميع الوقيتات فرضًا كانت، أو سنة مؤكدة، أو مستحبة: كسنة العصر، والوضوء، والضحى.

والمتبادر منه المكتوبات الخمس، فالاحتياط في قصر الأربعين على

المكتوبات، وعموم المواظبة للوقتيات[١٥].

وإرادة مالا وقت له: كالنذر، والنفل المطلق بعيدة[١٦].

والمراد أربعون متوالية بحيث لايحصل هناك فوات بخروج صلاة عن وقتها، ولو بعذر[١٧] سواء قضيت في المسجد، وعدّت من الأربعين، أو ألغيت من العدد، وعدّ ماسواها.

والأصل في فاتت الصلاة فات وقتها، لكن المتبادر إلى الأفهام عموم الفوات للزمان والمكان حتى إذا صلّى منها صلاة في غير المسجد استأنف العدد.

وإرادة فوتها مع الإمام، أو بجماعة غير ظاهرة[١٨] وإن كان ترك الجماعة

---

(١٥) قال أبو عبدالرحمن: وجه الاحتياط أن تحقيق أربعين صلاة مكتوبة تناول الوقتيات المسنونة دون نقص في الأربعين المكتوبة.
ولو جعلنا الحديث مطلقًا وكملنا أربعين صلاة من المكتوبة وغيرها لكانت تنقص عن أربعين.

(١٦) قال أبو عبدالرحمن: لو صح الحديث بدون زيادة الطبراني، لكان مالا وقت له، وماله وقت من غير المكتوبات محتملين معًا، لأن الأصل في الصلاة العموم. ولو صحّ الحديث بزيادة الطبراني، لكان الظاهر صلاة المكتوبة تغليبًا لإرادة فوات الجماعة، لافوات الوقت، والجماعة إنما هي الفريضة.
وأبينُ دلالة هذا الظاهر بأن إرادة غير الفريضة لاتقتضي الاحتياط بعدم الفوات، إذ المراد أداء أربعين صلاة فحسب.

(١٧) قال أبو عبدالرحمن: القيد بالتوالي يكون على القول بأن المراد المكتوبات.

(١٨) بل هي الظاهرة لأن فوات الصلاة يعم فوات وقتها زمانًا وفوات أدائها جماعة، ولايُخَصصُ فوات من فوات إلا بدليل.

مكروهًا إلا بعذر، والاحتياط لايخفى.

وأما القول بحمل اللفظ على أكمل (أفراده وإن شاع بين العلماء) فيمنع منه أن اللفظ المطلق حقيقة في الجنس المطلق، أو الفرد المطلق في اسم الجنس، والنكرة.

على أن الأكمل غير منضبط لافتقاره إلى جميع السنن والمستحبات.

ومن المعلوم عموم الفوات للسنن بخلاف القضاء.

وتجزيء [في المسجد الحالي إلا أن] المسجد الأصلي الذي كان في زمنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولى، وإن اختلف العلماء في حديث: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**» (من اجتماع التسمية، والإشارة).

ولا إشارة هنا لأن تناول مسجدي للزيادة إن سلم فبطريق التبع، والأصل خير من التبع.

هذا، وفي لفظ الكتابة تقوية للبراءة.

والعذاب أعم من النار، ولم يكتف به عن ذكر النفاق، فدل على قول الماتريدي: بأن الشخص يوصف بالشقاوة أو الكفر، ثم بالسعادة أو الإيمان، وبالعكس، خلافًا للأشعري.

زد على قوله لافائدة في براءته من النفاق، والمعنى لايجري عليه نفاق، وإن تاب منه.

قال أبو عبدالرحمن: ومادام الحديث غير صحيح، فالاستنباط منه كالنقش في الهواء، وإنما ذلك صناعة فقهية ورياضة ذهنية.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم . . هذا ماظهر مع شغل البال، وتكدر الفهم السقيم، ومن الله صلاح الحال، وفوق كل ذي علم عليم . . كتبه، يوسف الغزي، مدرس الحنفية .

قال أبـو عبدالرحمن: وأعود إلى مسألة التوثيق، فأذكر نص الحديث إسنادًا ومتنًا بأسانيدي التي سلفت عن الصلاة في مسجد الفتح إلى الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ .

قال الإمام أحمد في مسنده: حدَّثنا الحكم بن موسىٰ: حدَّثنا عبدالرحمن بن أبي الرجال: عن نبيط بن عمرو: عن أنـس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال:

من صلَّى في مسجدي أربعين صلاة، لاتفوته صلاة كتبت له براءة، ونجاة من العذاب، وبرىء من النفاق .

قال أبو عبدالرحمن: ورواه عبدالله بن الإمام أحمد، عن شيخ أبيه، فقال: وسمعته أنا من الحكم بن موسى .

ورواه الطبراني في الأوسط، وقال: «لم يروه عن أنس إلا نبيط . . تفرَّد به عبدالرحمن» .

وقد صحح المنذري إسناده، فقال في كتابه «الترغيب والترهيب»: رواته رواة الصحيح .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات .

وقد أبى الشيخ الألباني تصحيحه، وحكم بضعفه، ورد على من صححه .

فأما إبايته تصحيحه، فمعروفة من مقتضيات ضعفه عنده حيث انتفت شروط الصحة.

وأما حكمه بضعفه، فلسببين:

أولهما: أن نبيط بن عمرو لايعرف إلا في هذا الحديث.

وثانيهما: أنه يغاير تمام المغايرة الحديث المروي عن أنس - رضي الله عنه - [يعني في عموم هذا المعنى بأغلب تلك الألفاظ]، مرفوعًا، وموقوفًا عن البراءتين لمن صلى لله أربعين يومًا في جماعة يدرك التكبيرة الأولى.

وهو أقوى من حديث البراءتين لمن صلّى في مسجد رسول الله - ﷺ -

وأمّا رد الشيخ الألباني على من صححه، فمن جهتين:

أولاهما: أن عمدة الهيثمي في تصحيحه توثيق ابن حبان لنبيط.

وإنما وثقه ابن حبان على قاعدته في توثيق المجهولين.

وأخراهما: حكم المنذري بأن رجال إسناده رواة الصحيح وهم واضح، لأن نبيطًا هذا ليس من رواة الصحيح[19].

ولم يذكر الشيخ هل مصدر المنذري في التصحيح توثيق ابن حبان لنبيط أم لا؟.

وحكم المنذري بصحة الإسناد، يعني توثيقه لنبيط.

قال أبو عبدالرحمن: إلى هذه اللحظة من هذا القرن لم يجد الباحث إفادة عن حال نبيط غير توثيق ابن حبَّان، فإن كان توثيق المنذري له عن زيادة علم عن حاله - وهذا مستبعد - فهو لم يبيِّن هذه الزيادة من العلم بعدالته، فيظل على جهالة الحال.

(١٩) عن سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ١/٣٦٦.

وإن كان توثيقه له اتِّباعًا لابن حبَّان (وهذا هو المتعين) فقد علم مستند ابن حبان في تعديل المجهولين، وهو مذهب مرغوب عنه.

وأما الشيخ حمَّاد الأنصاري، فأبى إلا العمل به بمنهجين من المناظرة[20].

أحدهما: العلو في الاستدلال بتحسينه للحديث.

وثانيهما: بالتنزل في الاستدلال، بإعمال مذهب العمل بالحديث الضعيف بشروطه في فضائل الأعمال.

أما منهجه في تحسينه، فيقوم على التالي:

١ ـ ذكر نصوص التعديل لرجال إسناده الذين لم يكن النزاع فيهم حتى وصل إلى نبيط بن عمرو، فقال: «قال الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة في زوائد الأربعة: ذكره ابن حبان في الثقات.
هذا، ومن كلام هؤلاء الأئمة في توثيقهم لرواة هذا الحديث يتبينَّ لذي بصر في هذا الشأن أن ليس فيهم ضعيف بأي نوع كان الضعف»[21].

٢ ـ المنع من كون نبيط مجهول العين، لأنه وثقه واحد من أئمة الجرح والتعديل، وهو ابن حبَّان في الثقات، وأقره على ذلك الحفَّاظ، منهم المنذري في ترغيبه وترهيبه، والحسيني في الإكمال في رجال الإمام أحمد

---

(٢٠) وذلك في بحثه «رفع الاشتباه عن حديث من صلى في مسجدي أربعين صلاة» المنشور بمجلة صوت الجامعة [أي الجامعة الإسلامية] بشهر صفر سنة ١٣٩٥هـ ص ٢٧ ـ ٤٠.

(٢١) صوت الجامعة ص٢٨.

بن حنبل، والهيثمي في مجمعه ومنبعه، والحافظ ابن حجر في تعجيله.

فكيف يكون مجهولاً؟[٢٢].

قال الشيخ حمَّاد: وقال الحافظ في النخبة، وشرحها عند الكلام على مجهـول العـين، مانصه: فإن سمِّي وانفرد راو واحد بالرواية عنه، فهو مجهول العين، كالمبهم، إلا أن يوثقه غير من ينفرد عنه على الأصح.

وكذا من ينفرد عنه[٢٣] إذا كان متأهِّلاً لذلك.

وقال السيوطي، في تدريبه، بعد ذكر الخلاف فيما ترتفع به جهالة العين عن الراوي: إن زكاه أحد من أئمة الجرح والتعديل مع رواية واحد عنه قبل، وإلاَّ فلا.

واختاره أبو الحسن ابن القطان في كتابه «الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام للإشبيلي» وصححه شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر[٢٤].

---

(٢٢) صوت الجامعة ص٢٩.

(٢٣) أي إذا زكَّاه تلميذه الذي انفرد عنه زالت جهالة الشيخ إذا كان التمليذ متأهلاً.

(٢٤) صوت الجامعة ص٢٩ عن تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ص٢١٠ - ٢١١.

قال أبو عبدالرحمن: وتمام القول في التقريب، وشرحه كما في ص٢١٠ - ٢١١ مايلي: «قال في التقريب: وأما مجهول العين فقد لايقبله بعض من يقبل مجهول العدالة.

ثم من روى عنه عدلان عيناه ارتفعت جهالة عينه. قال الخطيب: المجهول عند أهل الحديث من لم يعرفه العلماء، ولايعرف حديثه إلا من جهة واحدة، وأقل مايرفع الجهالة رواية اثنين مشهورين.

وقال الشيخ حمَّاد: «وفي المغيث للسخاوي مانصه: «وخصَّ بعضهم قبول رواية من لم يرو عنه إلا واحد بمن يزكيه أحد من أئمة الجرح والتعديل.

وعليه يمشي تخريج الشيخين في صحيحيهما لجماعة من هذا الصنف أفردوا بالتأليف، انتهى.

فهذا نبيط، وإن تفرَّد عنه ابن أبي الرجال لكن بتوثيق من تقدم ذكرهم من أئمة هذا الشأن ارتفعت عنه الجهالة.

وهكذا أخرج الشيخان عن جماعة من الرواة الضابطين الذين ماروى عنهم إلا واحد.

فرواية الشيخين، أو أحدهما لهذه الجماعة في مقام الاحتجاج كافية في تعريفهم، وتعديلهم، وإن تفرَّد عنهم راويهم.

ثم سرد عددًا من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ ليس لهم إلاَّ راوٍ واحد مع أحاديث لاتعرف إلاَّ من جهة واحدة، ثم علَّق على ذلك بقوله: وتفصيل هذا المقام في الألفية للسخاوي، وشروط الأئمة للحازمي.

فهؤلاء كلهم مع تفرُّد راويهم عنهم موثقون لم يتعرَّض أحد من أئمة هذا الشأن لضعف واحد منهم بالجهالة، ولابغيرها.

ونقل ابن عبدالبر عن أهل الحديث نحوه. وقال في التدريب: ولفظه أي لفظ ابن عبدالبر كما نقله ابن الصلاح في النوع السابع والأربعين: كل من لم يرو عنه إلا رجل واحد فهو عندهم مجهول إلا أن يكون رجلًا مشهورًا في غير حمل العلم: كاشتهار مالك ابن دينار بالزهد، وعمرو بن معدي كرب بالنجدة».

فهكذا نبيط مع كونه تفرَّد عنه ابن أبي الرجال، فقد ذكره ابن حبَّان في الثقات، وأقرّه على ذلك من مضى ذكرهم، فمع هذا لايؤثّر فيه تفرُّد راويه على القول الأصّح.

نعم، إن لم يوثّقه أحد، فتفرَّد راويه قادح في صحة روايته.

فعلى هذا فنبيط بن عمرو مقبول الرواية على الأصح، وإن كان الراوي عنه واحدًا طالما أن إمامًا من أئمة هذا الباب: كابن حبَّان ذكره في الثقات، ولم يخالفه غيره من أهل هذا الشأن، بل أقرَّه على هذا التوثيق من تقدَّم ذكرهم من فحول الصناعة.

فمن ثم لايجوز لأي أحد أن يطعن، ولا أن يضعِّف من وثَّقه أئمة معتبرون، ولم يخالفهم إمام من أئمة الجرح والتعديل.

وكفى بابن حبَّان، والمنذري، والحسيني، والهيثمي، والحافظ ابن حجر، قدوة في هذا الشأن.

والحاصل أن مااختاره ابن القطَّان، وصحَّحه ابن حجر، وغيره هو مطابق لصنيع البخاري ومسلم كما تقدَّم، وهذا القول هو الصحيح المعتمد»[٢٥].

قال أبو عبدالرحمن: لابدَّ من تحقيق نقول الشيخ حمَّاد لمعرفة مدى انطباقها على دعواه، وذلك من وجوه:

١ ـ استدلال الشيخ حمَّاد بجماعة من الصحابة والتابعين لم يرو عن أحدهم إلاَّ راو واحد، وهم في الصحيحين إنَّما هو استدلال بصنيع الشيخ ابن الصلاح في رده على الخطيب.

(٢٥) صوت الجامعة ص٢٩ ـ ٣٥.

ذلك أن الخطيب، كما مر عرّف المجهول عند أهل الحديث بمن لم يعرفه العلماء، ولا يعرف حديثه إلا من جهة واحدة.

وقد بيَّن الخطيب أن أقل مايرفع الجهالة، رواية اثنين مشهورين.

وعلى هذا لا يكفي عند الخطيب، وابن عبدالبر، وجمهور أهل الحديث رواية واحد، وبه يظل نبيط بن عمرو مجهولاً، إذْ لم يرو عنه غير واحد.

ولقد تعقَّب ابن الصلاح، الخطيب، فقرر ابن الصلاح أن رواية الواحد تكفي في رد الجهالة، واستدلَّ برواية البخاري في صحيحه عن مرداس بن مالك الأسلمي، ورواية مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي، ولم يرو عنهما غير واحد.

قال السيوطي في شرحه: وذلك مصير منهما[26]. إلاَّ أن الراوي يخرج عن كونه مجهولاً مردودًا برواية واحد عنه»[27].

وما احتجَّ به ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ لا ينطبق على دعواه، ولهذا ردَّه عليه العلماء.

والشيخ حمَّاد يعلم أن قول ابن الصلاح مردود عليه، لأنَّ الردَّ موجود في نفس الموضع الذي نَقلَ عنه.

فكان عليه أن يُبينِّ أن العلماء ردَّوا قول ابن الصلاح، أو كان عليه على الأقل أن يبينِّ أن في المسألة خلافًا، وأن الجمهور بخلاف ابن الصلاح،

---

(٢٦) هكذا في الأصل، والصواب (منه) لأن الضمير لابن الصلاح، وليس إلى الخطيب، وابن عبدالبر.

(٢٧) تدريب الراوي ص٢١١.

ليكون القاريء على بيِّنة، فلا يغفل عن التماس مدى مطابقة أمثلة ابن الصلاح لدعواه.

وهذا هو نص رد العلماء على ابن الصلاح.

قال النووي مؤيِّدًا الخطيب رادًا على ابن الصلاح: «والصواب نقل الخطيب، ولايصح الرد عليه بمرداس، وربيعة، فإنهما صحابيان مشهوران، والصحابة كلهم عدول»[٢٨].

قال أبو عبدالرحمن: ليس المنع من الاحتجاج بمرداس وربيعة بسبب أنهما صحابيان فحسب.

بل وجه المنع أنهما معروفان عينًا، ومعروفان عدالة، ولو لم يرويا حديثًا ألبتة، ولو لم يرو عنهما حديثًا أحدٌ ألبتة.

فعلى سبيل المثال مرداس بن مالك الأسلمي تفرَّد بالرواية عنه قيس بن أبي حازم، فقد روى عنه حديث «يذهب الصالحون»، وهو في صحيح البخاري.

قال أبو عبدالرحمن: ولكن مرداسًا معروف عينًا وحالاً سواء روى عنه قيس أو لم يرو عنه، وسواء روى حديث يذهب الصالحون أم لم يروه.

فهو معروف في كتب السيرة، والتراجم أنه شهد بيعة الرضوان[٢٩].

كما أن صحبته معروفة بغير رواية قيس عنه.

قال العراقي معلِّقًا على كلام النووي الذي سقته آنفًا: «هذا الذي قاله النووي متجِّه إذا ثبتت الصحبة، ولكن بقي الكلام في أنه هل تثبت

(٢٨) تدريب الراوي/ التقريب وهو المتن ص٢١١.

(٢٩) الإصابة في تمييز الصحابة ٣/٤٠١.

الصحبة برواية واحد عنه، أو لاتثبت إلا برواية اثنين عنه؟.

وهو محل نظر، واختلاف بين أهل العلم.

والحقّ أنه إن كان معروفًا بذكره في الغزوات، أو في وفد من الصحابة، أو نحو ذلك، فإنَّه تثبت صحبته، وإن لم يرو عنه إلا راوٍ واحد.

ومرداس من أهل الشجرة، وربيعة من أهل الصفة، فلا يضرهما انفراد راوٍ واحد عن كل منهما.

على أن ذلك ليس بصواب بالنسبة إلى ربيعة، فقد روى عنه أيضًا نعيم المجمر، وحنظلة بن علي، وأبو عمران الجوني»[٣٠].

قال أبو عبدالرحمن: وهكذا كل من روى له الشيخان في الصحيحين من الصحابة ممن لم يرو عنه إلاَّ راوٍ واحد، فحكمه حكم مرداس وربيعة لكونهم معروفين غير مجهولين.

ومع هذا، فلابد من ذكر نماذج من غير الصحابة من الذين روى لهما الشيخان، ولم يرو عنهما إلا راوٍ واحد.

قال العراقي معلقًا على نص النووي الذي أوردته آنفًا: «إذا مشينا على ماقاله النووي أن هذا لايؤثر في الصحابة، ورد عليه من خرّج له البخاري أو مسلم من غيرهم، ولم يرو عنهم إلا واحد.

وقد جمعتهم في جزء مفرد.

---

(٣٠) تدريب الراوي ص٢١٢.

قال أبو عبدالرحمن: ذكر الشيخ حمَّاد في صوت الجامعة ص٣٣ ربيعة بن كعب السلمي على أنه لم يرو عنه غير أبي أسامة بن عبدالرحمن.

وترك استدراك العراقي وهو في الموضع الذي نقل منه.

منهم عند البخاري جورية بن قدامة تفرد عنه أبو حمزة نصر بن عمران الضبعي .

وزيد بن رباح المدني تفرَّد عنه مالك .

والوليد بن عبدالرحمن الجارودي تفرَّد عنه ابن المنذر.

وعند مسلم جابر بن إسماعيل الحضرمي تفرَّد عنه عامر بن سعد[٣١] .

وقد بيَّن الحافظ ابن حجر حال هؤلاء، فأمَّا جويرية فحكمه حكم مرداس، لأنه صحابي .

قال ابن حجر: فالأرجح أنه جارية عم الأحنف، صرح بذلك بن أبي شيبة في مصنفه .

وجارية بن قدامة صحابي شهير روى عنه الأحنف بن قيس، والحسن البصري[٣٢] .

وأما زيد بن رباح شيخ الإمام مالك، فليس كنبيط بن عمرو، لأنه وثقه عدد من الحفَّاظ، وليس مصدرهم ابن حبَّان وحده، بل فيهم من هو أقدم من ابن حبَّان .

قال ابن حجر: «وأمَّا زيد بن رباح فقال فيه أبو حاتم : ماأرى بحديثه بأسًا .

وقال الدارقطني، وغيره: ثقة .

وقال ابن عبدالبر: ثقة مأمون .

وذكره ابن حبَّان في الثقات .

---

(٣١) تدريب الراوي ص٢١٢ .

(٣٢) تدريب الراوي ص٢١٢ .

فانتفت عنه الجهّالة بتوثيق هؤلاء»[٣٣].

قال أبو عبدالرحمن: وقل مثل ذلك عن بقية من احتجّ بهم ابن الصلاح.

٢ ـ لمّا ذكر الشيخ حمّاد عددًا من الصحابة والتابعين ليس لهم إلاّ راوٍ واحد، وأحاديث لم تعرف إلا من جهة واحدة قال أثناء ذلك: «ولو اشتغلنا بتقصي هذا الفصل الواحد في التابعين وأتباعهم ولمن روى عنهم إلى عصر الشيخين لأربىٰ على ماذكر بكثير[٣٤].

قال أبو عبدالرحمن: هذا يوحي بأن من ذكرهم الشيخ[٣٥] من تتبعه هو، والواقع غير ذلك.

قال أبو عبدالرحمن: هذا مايتعلق باستدلال الشيخ حمّاد، وأما مايتعلّق ببطلان الحديث، فأكتفي بذكر هذه المقتطفات من كلام الربيعان.

قال: أسلوبه ليس نبويًا، ولا عربيًا بليغًا، وهذا نصه: «من صلّى في **مسجدي أربعين صلاة لاتفوته صلاة كتبت له براءة من النار، ونجاة من العذاب، وبرىء من النفاق**».

أليست النار هي العذاب؟.

وأليس العذاب عند الإطلاق ينصرف إلى عذاب الآخرة؟.

مقتضى التعبير البليغ أن يكتفي بواحد من هذين: إما النار أو العذاب.

---

(٣٣) تدريب الراوي ص٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣٤) صوت الجامعة ص٢٣.

(٣٥) وذلك في صوت الجامعة ص٣٠ ـ ٣٤.

وبعد ذلك، وبرىء من النفاق.. بعد أن ضمن له النجاة من النار والعذاب أخبر ببراءته من النفاق، ومعلوم أن من ضمنت له النجاة من النار لايكون منافقًا لافي الحاضر، ولا في المستقبل.

ثمَّ إنَّ مقتضى هذا الحديث أن من صلَّى في المسجد النبوي الشريف ثمانية أيَّام تحقق له ماتحقق لأهل بدر حيث أخبر المصطفى ـ عليه السلام ـ أن الله قال لهم: اعملوا ماشئتم، فقد غفرت لكم.

ولو كان ذلك صحيحًا لعرفه السلف الصالح، وبادروا إليه، وتناقلوه فيما بينهم، وبلَّغوه إلى من بعدهم، إذ هذا أمر ليس بالبسيط، فكيف لم يرد إلا بخبر واحد، عن صحابي واحد، من طريق تابعي واحد، غير معروف عند علماء الإسلام، ولم يرد اسمه في حديث واحد، غير هذا الحديث، ولا في كتاب واحد من كتب الترجمة سوى كتاب ابن حبان.

وهذا الذي قلناه عن متن هذا الحديث، مجرد وجهة نظر خاصة لانلزم أحد بقبولها، ولانلوم من خالفنا فيها[٣٦].

وقال: وسكوت ابن حجر، وعدم معارضته لابن حبان بشأن توثيق هذا الرجل، راجع إلى أمرين:

الأول: عدم معرفته لذلك الرجل، إذْ لم يرد له ذكر في شيء من كتب الجرح والتعديل إلاَّ في كتاب ابن حبَّان.

والثاني: علم ابن حجر باشتهار ابن حبان بين أهل العلم بالتساهل من ناحية، وبتوثيق المجاهيل من ناحية أخرى، فاكتفى بذلك عن بيان جهالة نبيط.

---

(٣٦) البحث الأمين ص١١ ـ ١٢.

علمًا بأن ابن حجر لم يقل في مقدمة كتابه تعجيل المنفعة: إنه إذا نقل حكمًا من أحد على أحد ولم يعارضه أن ذلك دليل على موافقته له.

ولايجوز إلزام أحد بما لم يلتزم[٣٧].

وقال: وبعد أن فرغت من تحرير هذه الورقات، واطّلع عليها بعض طلبة العلم الذين يحبون التحقيق، ويكرهون التلفيق، قدمت لي ورقة فيها اثنان وأربعون اسمًا من رواة الحديث، كل واحد منهم ذكره ابن حبان في الثقات، وذكر ذلك ابن حجر في التهذيب، وسكت عليه.

وفي التقريب ذكر أمام كل واحد منهم أنه ضعيف أو مجهول، وغالبهم حكم عليهم بالجهالة.

وإليك أيها القاريء أمثلة لتكون على بصيرة في هذا الأمر، وحتى لاتغتر بقول أحد بدون أن تقوم بنفسك بالمراجعة والتحقيق، وحتى تعرف أن أكثر الناس يبنون أحكامهم على الوهم والظنون، وقد تكون نياتهم حسنة، ولكن حسن النية لايكفي خاصة بالأمور العلمية:

١ ـ غيلان بن عبدالله العامري، ذكره ابن حبان في الثقات، وسكت عليه ابن حجر في التهذيب، وبيّن في التقريب، أنه ليّن.

٢ ـ القاسم بن فيَّاض الصنعاني، ذكره ابن حبان في الثقات، وسكت عليه ابن حجر في التهذيب، وبيّن في التقريب، أنه مجهول.

٣ ـ القاسم بن محمد بن عبدالرحمن، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الذهبي: غير معروف.

٤ ـ قدامة بن وبره العجلي البصري، ذكره ابن حبان في الثقات، وسكت

(٣٧) المصدر السابق ص١٥.

عليه ابن حجر في التهذيب، وبيَّن في التقريب، أنه مجهول.

٥ ـ كعب المديني أبو عامر، ذكره ابن حبان في الثقات، وسكت عليه ابن حجر في التهذيب، وبيَّن في التقريب، أنه مجهول[٣٨]

فمعلوم أن السلف إذا قالوا بالحديث الضعيف، أو عدم التشدد في صحة الإسناد، فهم يعنون ماسمي بعدهم بالحسن، إذ أن اصطلاح السلف على أن الحديث قسمان: صحيح، وضعيف، فما لم يبلغ درجة الصحيح، فهو ضعيف في اصطلاحهم، وعلى هذا أنزلوا مانقل عن الإمام أحمد، وغيره من قولهم: الحديث الضعيف أحب إلينا من القياس.

وكذا قولهم: إذا روينا في الحلال والحرام تشددنا، وإذا روينا في فضائل الأعمال تساهلنا.

فهم لايعنون حديثًا فردًا من أول سنده إلى آخره، وفي سنده راوٍ مجهول العين والحال، وحتى راويه عن ذلك المجهول، وهو عبدالرحمن بن أبي الرجال، قال فيه ابن حجر، في التقريب: صدوق يهم.

فليس هو في الدرجة العليا من رواة الحديث ولا قريبًا منها[٣٩].

قال أبو عبدالرحمن: لاأظنني أتيت على كل الملامح الكريمة التي جاذبتها أفانين الفنون غضة طرية، فأنَّىٰ لذهني أن يستوعب المطارحات في منزل الشيخ حسن الأنصاري، والأستاذ بهجت جنيد شقيق الدكتور يحيى ساعاتي، وشبيهه إلى أبعد حد، والمهندس عبدالعزيز الحصين، والشيخ ابن زاحم، ورجل الأعمال الرحيلي.. وغيرهم، وغيرهم، وفضلاء

(٣٨) المصدر السابق ص٢٠.

(٣٩) المصدر السابق ص١٨ ـ ١٩.

في مكتبة الحرم النبوي، كابن شيخنا محمد الأمين الشنقيطي، وفضلاء من تركيا ذوي تخصصات في الهندسة والإدارة، ولكن يجمعنا نسب من العلم، ووشيجة من الأدب؟؟!!.

فلعل مامضىٰ عن طيبة الطيبة قطرة يتلوها قطرات.

ولعلَّ من تلك القطرات رحلة نادرة عمرها أكثر من نصف قرن لأحد آل حافظ الفضلاء كتبها في شبابه، ووجدت في أوراق الأمير النبيل عبدالعزيز بن إبراهيم آل إبراهيم ـ رحمه الله ـ.

ولم يند عن الذاكرة شاب صغير السن كهل العلم جمعتني به محبة الإمام أبي محمد بن حزم، وشد الرحال إلى الرياض، ليأخذ عني مذهب أهل الظاهر، وهو أبو محمد عبدالعزيز بن علي الحربي نسبا، المدني موطنًا، الظاهري مذهبًا.

وكانت تحيته ـ حفظه الله ـ:

عليك سلام الله ياشيخ مذهبي

إلى أن يقول:

أتيتك من أقصى المدينة ساعيًا

أسائل عنك الناس في كل مكتب

ثم يقول:

ولي أمل في حفظ مذهب مغرب

فقيه خبير بالمذاهب مغربي

ويقول:

ألم تر أني ظاهــري مهــذب
وأنــك ياابــن الأكــرمـين مهــذبي

فعاد ـ ووا أسفي، ووا خجلتاه ـ بخفي حنين، وكان يقرأ كتاب الله بالقراءات السبع.

ولم أره بين الزوار أثناء إقامتي الطويلة بطيبة، فأشفقت أن يكون باعني بزهد، ولا يلام، ولكن عذري من ثلاثة أشجان مبرحة:

فأما الشجن الأول: فكتب تاريخية أصبحت دينًا في ذمتي صرفتني عن كل علم شرعي يعتبر أداؤه من باب الحسبة.

والشجن الثاني: أنه لمَّا أُذن لي بحلقة في المسجد التزمت لمن له الإذن أن لاأدرس المـذهب الـظاهري أو أدعو له، ونـسيت مرة، فدرست مع شابـين من طيبة كتاب «النبذ» لابن حزم، ثم تذكرت التزامي فقطعت الدرس.

والشجن الثالث: أنني ألغيت درس المسجد ودروس البيت لما أعانيه من استفزاز لايتسع له صدري، وسعة الصدر موهبة من الله.

فجـاء الحربي الظاهري في تلك الأشجان مع ضيق الوقت، وكثرة الأعباء.

وأما تقاعسي في مقارضة الشعر فعبء أثقلني أمام أناس يغرقون من بحر، وأنا أنحت من صخر.

وقبل الحربي الشيخ عايض القرني (الذي كان الشعر عليه أسهل من الارتجال، وقد شهر به) ختم تحيته ـ حياه الله وبياه ـ بقوله:

وفي الــنـفـس شوق للقــاء وأنــني
أقــول كما كان الإمــام يقــول:

ألم تر أني ظاهـري وأنـني
على مابـدا حتـى يقـوم الـدلـيل

والقـانـوني الجهبـذ أبو مازن سامي الجبان، كانت له ـ حفظه الله ـ مطارحـات لاسيَّما قصيدة له لامية هنـأني فيهـا في يوم الأربعـاء ٢٤/١٢/١٤٠٤هـ بمولد ابني أبي الوفاء علي.

وقصيدة السناكيح لمعالي الدكتور غازي القصيبي، وقصيدة العوفي، وغيرها وغيرها.

ولـو كان أستاذي محمد المسيطير، حولي لتولَّى عني جزاءهم ـ جزاه الله خيرًا ـ استقلالاً أو تكميلاً، كما فعل ـ حفظه الله ـ في إحدى أزماتي فساعدني ببضعة أبيات هنَّ لب القصيدة وجوهرها، وقد ظنَّ المردود عليه أن شيطان شعري لا يقوى على ذلك، فقال: ساعده بعض الأعجمين!!.

اتهم ضيفًا عندي من كبار العلماء أهل الظاهر والحديث.

فإلى الحربي، والقرني، والجبان، وغيرهم: إن المقارضة في ذمتي إلى أن تبتسم لي تجليات الشعر، فأقارضهم بما يهز أعواد المنابر، وأوتار القلوب دون أن أنضي مطية سواي، أو أن أتحلى بحلي مستعار.

قال أبو عبدالرحمن: وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده المرسلين.

فجر يوم الأحد ٢٥/٩/١٤١٢هـ

دارة داوود الرياض

ثم عاودته تهذيبا بعد ظهر الأحد الموافق ١٦/١٠/١٤١٢هـ بدارة داوود بالرياض وصلى الله على محمد